شرقى ومستشرق
رفاعة الطهطاوى وسلفستر دى ساسى

د. محمد صبرى الدالى
كلية الآداب - جامعة حلوان

شرقى ومستشرق

رفاعة الطهطاوى وسلفستر دى ساسى

قصة الاستشراق قديمة ، وإن روت فى الأساس علاقة المُستشرقين بالشرقيين فى الشرق . فمع بداية القرن التاسع عشر كانت قد مرت عدة قرون على بداية الاستشراق الذى وطد العديد من أُسسه وأنتج العديد من مُنتجاته الثقافية / العلمية ، وأمضى شوطاً فى فهم الشرق وفى تأييد أهداف النظم السياسية الأوربية . ومع ذلك كان الشرق هو محل دراسة الغرب ، خاصة مع قلة رحلات الشرقيين للغرب وكون ما نعرفه منها لم يتعد نوعين : رحلات قام بها بعض السياسيين الشرقيين لخدمة أهداف دبلوماسية محددة كإطلاق سراح أسرى[١] و رحلات لبعض المسيحيين الشرقيين إلى الغرب لأهداف دينية فى الأساس[٢] . والسؤال : ماذا عن كُنهِ علاقة الشرقيين بالمستشرقين فى أوربا ، وإلى أى مدى كان تأثر الشرقى بالمستشرق ؟ . هذا ما تحاوله الدراسة بالتطبيق على أبرز النماذج الأولى المعروفة : رفاعه رافع الطهطاوى (١٨٠١ – ١٨٧٣) وعلاقته بالمستشرق الفرنسى سلفستر دى ساسى (١٧٥٨ – ١٨٣٨) [٣] والقضايا التى أثارتها تلك العلاقة ، لاسيما وأن رحلة الطهطاوى إلى فرنسا كانت من أولى الرحلات المعروفة لدينا والتى تحمل اختلافاً فى أهدافها ونتائجها على فهم وتقييم الشرق للغرب . بيد أن الأمر يتطلب فى البداية التطرق لحقيقة الهوية الثقافية للطهطاوى قبل ذهابه إلى فرنسا ، والتى يمكن من خلالها معرفة حقيقة تأثره بالمستشرقين .

وُلد رفاعه بدوى رافع فى أكتوبر١٨٠١ فى طهطا بالصعيد لأسرة تنتمى للأشراف (لنسبتها إلى السيدة فاطمة) وإن تعرضت لضائقة اقتصادية نجمت عن سياسات محمد على الاقتصادية ، مما أجبر الوالد على التنقل بأسرته فى أكثر من مكان بالصعيد ، عاد بعدها إلى طهطا . فى أثناء ذلك داوم رفاعه على حفظ القرآن وتلقى مبادئ العلوم الفقهية ، خاصة على أخواله المشايخ الذين

كفلوه مع أمه بعد وفاة والده . ومع وفاة الوالد انتقل إلى القاهرة عام ١٨١٧ حيث التحق بالأزهر الذى كان مُؤهلاً للالتحاق به . درس رفاعه بالأزهر حوالى ست سنوات ، عمل بعدها فيه بالتدريس لسنتين فدرَّس كُتباً فى الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض . فى الوقت نفسه عمل واعظاً بالجيش مما أفاده فى احترام النظام والكفاح فى سبيل الوطن . وفى أبريل ١٨٢٦ سافر رفاعه إلى فرنسا حيث عاد منها عام ١٨٣١ (٤) . وما سبق يُشير إلى أن رفاعه جاء للدنيا مع رحيل الاحتلال الفرنسى عن مصر . أما تعليمه المُبكر فارتبط بالفترة التى استقر فيها محمد على فى حكم مصر ثم طرحه مشروعاً نهضوياً عاشه رفاعه منذ شبابه ونُضجه الفكرى وشارك فيه بعد عودته من فرنسا . وبشكل عام كانت السنوات التى عاشها رفاعة سنوات إعادة البناء للوطن المصرى بكل ما يصحبها من سرعة إيقاع لحركة التاريخ (٥) .

والمُتابع لرحلة الطهطاوى قبل ذهابه إلى باريس يلاحظ ثلاثة أمور مهمة على الأقل:-

أولاً : كان التعليم الدينى والثقافة الإسلامية هى الأسس التى نشأ عليها فى الصعيد وبعد رحيله إلى القاهرة ، حيث التحق بالأزهر (٦) . ومن هنا يمكن فهم مدحه الأزهر باعتباره " المحل الأنور الذى هو جنة علمٍ دانية الثمار ، وروضة فهمٍ يانعة الأزهار " وكذا ما أورده عن العطار :

لازم إذا رُمت الفضائل مسجدا بشموسِ أنواعِ العلوم تنورا

فيه رياض العلم أينع زهرها فلذلك المعنى تسمى الأزهرا

وكذا :

ومن يغترب عن أزهر العلم فلينُح على بُعدِ دارِ العلمِ والعلماء (٧)

ثانياً : فتح الأزهر الطريق للترقى أمام الطهطاوى . وحسب قوله " سهَّل لى الدخول فى خدمة صاحب السعادة أولاً فى وظيفة واعظ فى العساكر الجهادية ، ثم منها إلى رُتبة مبعوث إلى باريس صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم

والفنون " [٨]. ولقد كان الانتقال للعمل بالجيش بمثابة انخراط فى الإجراءات الجديدة التى اتخذها محمد على فى مصر وأدت لإرسال البعثات إلى أوربا [٩].

ثالثاً : لعب حسن العطار ١٧٦٦ - ١٨٣٥ دوراً أساسياً فى حياة الطهطاوى الفكرية والعلمية ، سواء فى الأزهر أو خارجه حيث تردد الطهطاوى عليه كثيراً فى منزله حتى عزى البعض للعطار ميل الطهطاوى للعلوم العصرية والأدب والإنشاء ، وكذا ميله للبحث والتأمل والاستقراء [١٠] . ومن هنا أشار على مبارك إلى أن " أغلب تربيته الأزهرية كانت على العلامتين المفضالين الشيخ الفضالى والشيخ حسن العطار ، فتخرج عليهما فى سائر العلوم العربية .. وكان له منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطار فكان يشترك معه فى الاطلاع على الكتب الغريبة التى لم تتداولها أيدى علماء الأزهر " . وسوف تبقى ظاهرة " الكتب الغريبة " مُسيطرة على الطهطاوى حيث " كانت له عناية كبيرة باقتناء الكتب ، فاشترى الكثير النادر منها حتى بلغت بما اشتراه أولاده نحو ٤٥٠٠ كتاب كان فيها من الكتب العربية الغريبة ما ليس فى غيرها " . ودور العطار يبدو أيضاً فى حياة الطهطاوى العملية حيث رشحه للعمل كواعظ فى الجيش ، وبعدها رشحه للسفر إلى باريس " لما فيه من الأهلية واللياقة " مع " جملة من أبناء أكابر الحكومة المصرية وغيرهم لتعلم العلوم الأوروباوية ". والأهم أن العطار أوصى رفاعه قبل السفر لباريس " بأن يفيد بلاده بعمل رحلةٍ تجمع ما عليه المملكة الفرانساوية عموماً وتضبُط أحوالها خصوصاً " وكتب الطهطاوى " فلما رُسم اسمى فى جملة المسافرين وعزمت على التوجه أشار علىَّ بعض الأقارب والمُحبين لاسيما شيخنا العطار ، فإنه مُولعٌ بسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار ، أن أُنبِّه على ما يقع فى هذه السَفرة وعلى ما أراه وما أُصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن أُقيِّده ليكون نافعاً فى كشف القِناع عن مُحيَّا هذه البقاع التى يُقال فيها أنها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلاً يَهتدى به إلى السفر إليها طُلاَّب الأسفار ، خصوصاً وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظنى شئ فى تاريخ مدينة باريس .. ولا فى

تعريف أحوالها وأحوال أهلها " . ومن هنا كانت الفكرة الأساسية لتأليف " تخليص الإبريز " حيث شرع الطهطاوى منذ " ركوب الباخرة من الاسكندرية ، فى تعلم مبادئ اللغة الفرنساوية بهمةٍ عاليةٍ وعزيمةٍ صادقةٍ ، واتخذ له بعد وصوله إلى باريز مُعلماً خاصاً على نفقته "(١١) .

طال تأثير العطار فى الطهطاوى الموقف من قضية التحديث ، حيث كانت الدعوة الرئيسية التى تبناها العطار لفتِ أنظار مُعاصريه لأهمية العلوم الحديثة وضرورة الأخذ بها . وفى هذا الإطار انتقد جمود معاصريه وتقيُّدهم بأعمال سابقيهم دون النزوع للتجديد وكان قوله " اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون .. نُكررها طوال العمر ولا تطمح نفوسنا إلى النظر فى غيرها حتى كأن العلم فيها . فإذا ورد علينا سؤال من علم الكلام لا نجده فيها تخلصنا بأن هذا كلام الفلاسفة ، أو مسألة أصولية قُلنا لم نرها فى جمع الجوامع فلا أصل لها ، أو نُكتة أدبية قُلنا هذا من علوم أهل البطالة " . كما آمن بضرورة تغيير مصر " إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد من المعارف ما ليس بها " . ولقد كان لرحلاته خارج مصر واحتكاكه بالأوربيين تأثيراً فى وعيه بذلك . وأهمية العطار أيضاً ترجع إلى كونه أصبح شيخاً للأزهر ٣٠ - ١٨٣٥ حيث حاول مواصلة رسالته بضرب المثل الناجح والإيحاء لتلاميذه . وهكذا فعلاقة الطهطاوى بالعطار أتاحت له منذ وقت مبكر - وعلى غير المُعتاد آنذاك - قراءة ابن خلدون ومعرفة فكره ، حتى كان قادراً على فهم مقارنة الفرنسيين بينه باعتباره (مونتسكيو الشرق) وبين مونتسكيو " ابن خلدون الإفرنجى " . والأهم أن الشرق والغرب التقيا على يدى الطهطاوى لأول مرة على وفاق . لقد كان اللقاء من قبل عنيفاً يحمل الشرق على الخوف والحذر من الغرب الذى يُطالعه بالحديد والنار ويُطل عليه دائماً بالغدر والطمع . ولما كان الطهطاوى امتداداً للعطار فقد بدأت ميول العطار التحديثية تنتقل تدريجياً إليه قبل سفره إلى باريس وبعدها . فعندما تولى الإشراف على " الوقائع المصرية " كان ضمن ما قام به من تجديدات تضمين كل عدد من أعدادها بقطعة أدبية مأخوذة من

الكتب التراثية العربية ، ومنها مقدمة ابن خلدون التى كانت من بين الكتب التى شجع على طبعها فى مطبعة بولاق . وفى الوقت نفسه حث الطهطاوى فى مؤلفاته – خاصة مناهج الألباب – أصحاب العلوم الشرعية على ضرورة التشبث " بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية " [١٢] .

ورغم تميُّز العطار بين أقرانه فى اهتماماته العلمية وتقديره لكل العلوم [١٣] وجولاته لسنوات " فى الديار الرومية والشامية والحجازية " وإهتمامه بالأدب " نظمه ونثره " و" دقائق المنطوق والمفهوم " مثل " علم الحكمة " والهندسة " وآداب البحث " وعلم الكلام [١٤] وما رُوىَّ عن تعلمه لمبادئ اللغة الفرنسية [١٥] .. فإنه لم يكن الوحيد فى أفكاره [١٦] ولا فيما شاهده من مظاهر العلوم الحديثة التى جاءت لمصر مع الاحتلال الفرنسى . يمكن فهم ذلك من قول الطهطاوى عن بعثته لفرنسا " فلما رُسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار على بعض الأقارب والمحبين ، لاسيما شيخنا العطار " [١٧] .. فما سبق يعنى أن هناك غير العطار ممن أشاروا على الطهطاوى بما فعله ، وهناك من سافروا معه إلى باريس [١٨] بل وهناك من سافروا لبلاد أوربية أخرى ومنهم الشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى سافر إلى روسيا عام ١٨٤٠ لتدريس اللغة العربية فى جامعة سان بطرسبورج [١٩] .

إذن كان الطهطاوى مزوداً بنوع من الوعى قبل سفره إلى باريس . قد يكون هذا الوعى محدوداً لكنه كان حاضراً فى ذهنه ، الأمر الذى يتضح فى مقارنته بين منتسكيو وابن خلدون وبين دى ساسى والفارابى ، وكذلك فى عرضه للنهضة العلمية فى فرنسا وأوربا مع بيان فضل المسلمين الحضارى حتى كتب " البلاد الاسلامية برعت فى العلوم الشرعية والعمل بها وفى العلوم العقلية وأهملت العلوم الحكمية (أى العلوم والفنون والصنائع) بجملتها . فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية فى كسب ما لا تعرفه وجلب ما تجهل صنعه . ولهذا حكم الإفرنج بأن علماء الإسلام إنما يعرفون شريعتهم ولسانهم .. ولكن يعترفون لنا بأنا كنا أساتيذهم فى سائر العلوم وبقدمنا عليهم . ومن المقرر فى الأذهان أن الفضل

للمُتقدم ، أو ليس المتأخر يغترف من فضالته " . أما مقارنة المفاهيم فلم تكن غائبة عنه " فما يُسمونه الحرية ويُرغِبُون فيه هو عين ما يُطلق عليه عندنا العدل والإنصاف " . وهكذا لم يذهب الطهطاوى إلى باريس بعقلية حيادية مجردة من كل هُوية وإنما ذهب بعقلية قادرة على التفاعل ، كما أن رؤيته وقراءاته المختلفة كانت تتم بواسطة ثقافته الأولى كما تلقاها فى الأزهر [٢٠] .

فإذا كان ما سبق يعنى أن الطهطاوى كان نتاج الدائرة الثقافية المصرية (الإسلامية والعربية) وعلى دراية تامة بأهميتها وما بها من إيجابيات وسلبيات حتى أوائل القرن التاسع عشر .. فماذا عن تأثير الدائرة الثقافية الثانية فيه (أى فرنسا وباريس) ؟ .

كان من الطبيعى أن يتأثر الطهطاوى بفرنسا ويستفيد منها ؛ إما لسفره إليها وإقامته فيها لحوالى خمس سنوات ، أو لتلقيه التعليم فيها وما رآه هناك من تقدم ، أو لما سمعه هنا وهناك من حث على الاستفادة [٢١] رغم أن محمدًا عليًا لم يكن يود أن يعرف طُلاَّب بعثته أكثر مما يريده هو أو أكثر مما أوفدهم لأجله[٢٢] . ومع ذلك فنحن مع القول بصعوبة التقدير الدقيق لآثار الثقافة الفرنسية على فكره وأعماله ، وأن من الممكن فقط الخروج بنتائج نسبية مما ذكره بنفسه عن قراءاته هناك وصلاته بالمستشرقين المشتغلين بالتراث العربى. أما قراءاته فكانت فى مجالات شتى كالتاريخ والجغرافية والمنطق والفلسفة اليونانية والميثولوجيا وعلم الاجتماع والسياسة والأدب والعلوم الرياضية والتطبيقية [٢٣] . ولاشك أن هذه السِمة الموسوعية كان لها أثرها على أعماله ، المؤلف منها والمترجم ، ومكَّنتهُ من استخدام وسائل كثيرة فى التعبير عن القضايا التى أثارها. ألم الطهطاوى كذلك بالاتجاهات الفكرية الفرنسية فى القرن الثامن عشر : فقرأ لفولتير واطلع على العقد الإجتماعى لجان جاك روسو وأهم مؤلفات مونتسكيو . ولهذا كله تشبع بآثار حركة الاستنارة التى قُيِّض له أن ينقل تراثها إلى الفكر المصرى . وهو لا يكتسب هذه الصفة بفضل ما نَقل إلى العربية من رسائل فلسفية ونصوص دستورية فحسب ، بل وأيضاً بفضل تصديه

لتحليل مفهومات الحضارة الغربية ، وخاصة فى جوانبها السياسية والاجتماعية[٢٤] .

ومع ذلك يبقى السؤال : هل يمكن الحسم بأن الطهطاوى استطاع الإلمام بكل الاتجاهات الفكرية السائدة فى فرنسا آنذاك ؟ وهل استطاع الفهم التام لكل ما قرأه من كُتب أو قرأ فيه من علوم وفنون ؟ . وهل يمكن الفهم الصحيح لكل ما كتبه بعد عودته من بعثته بالوقوف فقط عند قراءاته فى باريس ؟ . إن مطالعة مقدمة " مناهج الألباب " كمثال تقودنا للقول بغير ذلك حيث كتب " اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعة واجتنيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة ، مع ما سنح بالبال وأقبل على الخاطر أحسن إقبال . وعززتها بالآيات البينات والأحاديث الصحيحة والدلائل المبينات . وضمنتها الجم الغفير من أمثال الحكماء وآداب البُلغاء وكلام الشعراء من كل ما ترتاح إليه الأفهام وتنزاح به عن الذهن الأوهام وتتأيد به السعادة وتتأيد به السيادة . وبالجملة فقد أودعتها ما يكون لأهل الوطن ذخراً ويعقبه النجاح دنيا وأخرى " [٢٥] . وما سبق يفيد بأن الثقافة الفرنسية كانت فقط أحد الروافد التى استقى منها الطهطاوى أفكار الكتاب . وهنا لابد من التفكير فيما انتهى إليه لويس عوض من أن المرحلة الأولى من فلسفة الطهطاوى قامت على " الحرية والقومية والزمنية " أو ما يسمونه تقليدياً بالعلمانية . أما فى مرحلته الأخيرة ، بعد نضوجه ، فوضع الراديكالية المصرية إلى جانب هذه الأسس . بعبارة أخرى أنه تطور فى أواخر حياته من الليبرالية المطلقة إلى الراديكالية [٢٦] . فى الوقت نفسه لابد من ملاحظة أن الطهطاوى كثيراً ما واءم ما تلقاه فى فرنسا وفقاً لثقافته الأصلية [٢٧] . صحيح أن قضية التحديث والاقتباس من الغرب تركت بصماتها على معظم القضايا التى تناولها ، كما أنه وعى قيمة الاتصال بالغرب أو ما أسماه (المخالطات المصرية مع الدول) .. لكنه لم يقتصر فى ذلك على إظهار جوانب التفوق فى الحضارة الأوربية (سواء من خلال كتاباته الشخصية أو من خلال الترجمات التى قام بها أو أشرف عليها) [٢٨] .

بالإضافة لما سبق لابد من الوضع فى الاعتبار تحفظاته ، خاصة الدينية ، على ما شاهده فى فرنسا وما قرأه عن أوربا . لقد قسّم العالم لخمسة أقسام " بحسب مِزية الإسلام " واعتبر أوربا الثالثة فى الترتيب بعد آسيا وأفريقية وأضاف " هذا كله بالنظر للإسلام والأمور الشرعية .. ولا يُنكر مُنصف أن بلاد الإفرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكمية، وأعلاها فى التبحُر فى ذلك بلاد الانكليز والفرنسيس والنمسا فإن حكماءها فاقوا المتقدمين.. وأتقنوا الرياضيات والطبيعيات والإلهيات وماوراء الطبيعيات أشد إتقان وفلسفتهم أخلص من فلسفة المتقدمين " . ومع ذلك فإنه عندما مدح نظافة الإفرنج بالسفينة التى أقلته إلى مرسيليا أضاف " مع أن النظافة من الإيمان وليس عندهم منه مثقال ذرة " . وعندما قسَّم " الخلق " إلى مراتب ووضع " الإفرنج " فى المرتبة الثالثة مع " بلاد مصر والشام واليمن والروم " فإنه أضاف " وهذه المرتبة الثالثة تتفاوت فى علومها وفنونها وحُسن حالها وتقليد شريعة من الشرائع وتقدمها فى النجابة والبراعة فى الصنائع المعاشية. مثلاً البلاد الإفرنجية بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم الرياضية والطبيعية وماوراء الطبيعة وأصولها وفروعها ولبعضهم نوع مشاركة فى بعض العلوم العربية وتوصلوا إلى فهم دقائقها " لكنهم " لم يهتدوا إلى الطريق المستقيم ولم يسلكوا سبيل النجاة ولم يرشُدوا إلى الدين الحق " . ومع أنه فضَّل باريس على لندن لأسباب منها " راحة الغرباء فيها وحظهم وانبساطهم مع أهلها ، فالغالب على أهلها البشاشة فى وجوه الغرباء ومُراعاة خاطرهم ولو اختلف الدين "فإنه أضاف أن السبب فى ذلك أن أكثر أهلها" إنما له من دين النصرانية الإسم فقط، حيث لا ينتحل دينه ولا غِيرة له عليه، بل هو من الفرق المُحسنة والمُقبحة بالعقل أو فرقة من الاباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب . فإذا ذكرت له دين الإسلام فى مُقابلة غيره من الأديان أثنى على سائرها من حيث أنها كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وإذا ذكرته له فى مقابلة العلوم الطبيعية قال أنه لا يصدق بشئ مما فى كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية " [٢٩] .

استمرت أحكام الطهطاوى على ذلك . فباريس " وإن كانت من أحكم سائر بلاد الدنيا " إلا أنها " كباقى مدن فرانسا وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبِدع .. ومن عقائدهم القبيحة قولهم أن عقول حكمائهم وطبائعييهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منهم . ولهم كثير من العقائد الشنيعة كإنكار بعضهم القضاء والقدر .. ومنهم جماعة يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق ونظمهم نظاماً عجيباً فرغ منه ثم لا يزال يلاحظهم بصفة له تعالى تسمى صفة العناية والحفظ " . ومع أن الباريسيين " يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى الغُويصات .. وليسوا أُسراء التقليد أصلاً ، بل يحبون دائماً معرفة أصل الشئ والاستدلال عليه " وأن " الذى يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعية فى هذا العصر بمدينة باريس " يجد أن " المعارف البشرية انتشرت وبلغت أوجها .. وأنه لا يوجد من حكماء الإفرنج من يُضاهى حكماء باريس " .. مع ذلك " لهم بعض اعتقادات فلسفية خارجة عن قانون العقل بالنسبة لغيرهم من الأمم غير أنهم يموهونها ويقوونها حتى يظهر للإنسان صدقها وصحتها " كما أن لهم " فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مُخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويُقيمون على ذلك أدلة يعسُر على الإنسان ردها .. فحينئذ يجب على من أراد الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شئ من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة حتى لا يغتر بذلك ولا يفتر عن اعتقاده ، وإلا ضاع يقينه " [٣٠] . ولقد تكرر ذلك فى الحديث عن علماء فرنسا [٣٢] ومكتباتها [٣٢] .

ومن جديد فإن ما سبق يوضح أن الطهطاوى تأثر بفرنسا وأُعجب بتقدمها ، ولكنه كان مُتحفظاً فى بعض أحكامه الدينية والاجتماعية ، وهو تحفظ لا يُقلل من اعتداله والتزامه ولا يُبرر ما ذهب إليه Dunne من أنه فعل ذلك خوفاً من قرائه بعد عودته إلى مصر [٣٣] بل يبرره ما ذهب إليه " النجار " من أن الشرق والغرب استويا على وفاق فى عقله وقلبه فاستطاع أن يوائم عقيدته وتقاليده الصالحة وعلم الغرب وما حسُن من تقاليده ، فظل حفيظاً على تقاليده وفروض

دينه ، وجمع بين نسبة الأزهر الحقيقية واكتساب العلوم الأجنبية ، ولم يفتتن بالغرب إلا بقدر ما استوى فى عقله من أسباب نهضته وتقدمه ، ولم يجحد للشرق سبقه فى الارتقاء وإن جحد منه تخلفه وتقاعسه . لقد عاد من فرنسا ، بعد خمس سنوات قضاها فيها وهو لا ينكر من حضارة الغرب إلا ما رآه مخالفاً للدين والملة دون تزمت أو جمود(٣٤) .

والطهطاوى وهو يقدم النموذج الفرنسى لم يكن يدعو إلى الأخذ به بقدر ما دعا إلى الأخذ عنه ، وذلك لوعيه بالفارق . ومن ثم فالمؤثرات الفرنسية وإن ساهمت بقدر كبير فى توسيع دائرة الوعى لديه وجعلته يتطرق إلى قضايا جديدة على مجتمعه ، إلا أنها كانت ترتد دوماً إلى الثقافة الإسلامية التى كانت تُمثل الإطار المرجعى الأول لديه. لقد كان الطهطاوى يدرك الفوارق بين مجتمعه والمجتمع الذى سافر إليه ، ومن هنا اهتم بذكر الحديث " الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو فى أهل الشرك " وأتبع ذلك بالقول " وبالجملة حيثما أمن الإنسان على دينه ، فلا ضرر فى السفر خصوصاً لمصلحة مثل هذه المصلحة ". وهو يدرك حاجة المسلمين للاستعانة بالأوربيين ، ومن هنا كتب عن رحلته " أنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع ، والحق أحق أن يُتبع " وأضاف أن رحلته لم تقتصر على " ذكر السفر ووقائعه " بل اشتملت أيضاً على " ثمرته وغرضه " . ومع ذلك فإنه أثبت حرصه على ألا يحيد فكره ومنهجه عن الطريق القويم " وأشهدت الله سبحانه وتعالى على أن لا أحيد فى جميع ما أقوله عن طريق الحق وأن أُفشى ما سمح به خاطرى من الحُكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد .. ومن المعلوم أنى لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية " . والواقع إن ما سبق كله يقودنا للقول بأن إعجاب الطهطاوى بتطور العلوم والفنون فى فرنسا – وأوربا عامة – لم يكن مطلقاً . وفى هذا الإطار يمكن فهم ما قيل عن أنه عاش فى فرنسا ورآها بعين مسلم شرقى ، وكذا قول على مبارك عنه أنه " لم توثر إقامته بباريز أدنى تأثير فى عقائده ولا فى أخلاقه وعوائده"(٣٥) .

ورغم ما قيل عن قلة اتصال الطهطاوى بالناس فى فرنسا وقلة تجواله فيها لانهماكه فى العلم والدرس [٣٦] فإن أحد الجوانب الهامة لنشاطه هناك إنما تمثل فى صلاته ببعض المستشرقين ، خاصة المهندس جومار Jomard الذى ساعد الطهطاوى ووجهه فى باريس بمثل ما ساعده ووجهه العطار فى مصر[٣٧] . وعلى كل فاهتمام جومار بالطهطاوى إنما يفسره أنه كان مشرفاً على البعثة ، وعلى علم بأحوال مصر لكونه من علماء " الحملة الفرنسية " هذا بالإضافة إلى توسمه أن يصبح رفاعه الطهطاوى – الأزهرى والمُهتم باللغة الفرنسية وبكتابة رحلته – رسولاً لنشر اللغة الفرنسية وثقافتها فى مصر والمنطقة [٣٨] .

ووفقاً لعلى مبارك كان لجومار " فضل التعهد بالإرشاد والتعليم والمحبة الخصوصية ، وساعده مساعدات جمة فى هذه البلاد " [٣٩]. وعندما كتب الطهطاوى عن رؤساء البعثة – عبدى المهردار ومختار الدويدار وحسن الاسكندرانى – فإنه أضاف أنه كان معهم " فى تدبير الدروس جناب مسيو جومار الذى ولاه صاحب السعادة ناظراً على الدروس " خاصة وأن الثلاثة " كانوا يتعلمون أيضاً كالباقى " . وهنا وصف جومار باعتباره " أحد علماء الانستتوت .. والذى يتراءى فى طبعه حُب حضرة صاحب السعادة وخدمته بنُصح ، ويُشاهد منه دائماً أنه يرغب فى الاعتناء بمصالح مصر من جهة نشر المعارف والعلوم فيها .. كما يُفهم ذلك من حاله ومما قاله فى طالعة رزنامته التى ألفها .. وشهرة معارف مسيو جومار وحُسن تدبيره يُوقع فى نفس الإنسان من أول وهلة تفضيل القلم على السيف لأنه يدبر بقلمه ما لا يدبر غيره بسيفه ألف مرة " [٤٠] . وكما نرى ، فإن حديث الطهطاوى عن جومار لم يطل الدين بالمرة ، وإنما ركز على علم الرجل وجهوده العلمية ، وسعيه للعمل بما فيه مصلحة مصر وحاكمها .

إلى جانب جومار كان للطهطاوى صلات بالمستشرق كوسين دى برسيفال Caussin de Perseval كما كانت له علاقة مهمة بالمستشرق سلفستر دى ساسى Silvestre de Sacy الذى تشابه مع الطهطاوى فى بعض الأمور الحياتية . ولد أنطوان سلفستر عام ١٧٥٨ فى باريس لأسرة تعتنق مذهب

الجانسينية الكاثوليكى القائم على فكرة الحد من الحرية الإنسانية انطلاقاً من مبدأ " إن العناية الإلهية ممنوحة لبعض الكائنات منذ الولادة وبعضها الآخر محروماً منها " . كان والده يعمل موظفاً " كاتب عدل / موثق عمومى " وإن توفى عام ١٧٦٥ تاركاً ابنه فى حضانة أمه التى قامت بدور كبير فى تربيته وتثقيفه . كانت ميول دى ساسى دينية ولذلك تلقى تعليمه فى البداية على أيدى بعض القساوسة فى دير بندكتى ، فبدأ بدراسة اللغات اللاتينية واليونانية وبعدها درس العربية والسريانية والكلدانية والعبرية . ومع أن اهتمامه فى البداية كان متجهاً نحو معرفة العبرية ليحقق الترجمات اللاتينية والفرنسية للإنجيل فإن اتصاله بدوم برترو Dom Berthereau الباحث فى النصوص العربية هو الذى وجهه لدراسة اللغة العربية التى فتحت له أبواب الشرق ، لأن المادة الشرقية – الدينى منها والدنيوى – كان يمكن الاطلاع عليها فى أقدم صورها وأكثرها نفعاً بتلك اللغة آنذاك . وفى عام ١٧٨١ عُيِّن فى وظيفة مستشار بدار النقود ، وبعدها عينه الملك " مفوضاً عاماً للنقود " حيث ظل فى تلك الوظيفة حتى عام ١٧٩٢ ثم استقال منها بسبب الثورة وانسحب إلى الريف . ونتيجة لعمله بعد تخرجه فى نشر المخطوطات الشرقية فى مكتبة باريس الوطنية ، ولترجمته ونشره بعض النصوص السريانية فى أعوام ١٧٨٠ و١٧٨٣ ، فإن الملك عيَّنه فى عام ١٧٨٥ فى أحد الوظائف الثمانية لـ" الأكاديميين الأحرار المقيمين " فى أكاديمية النقوش والآداب . ورغم معارضته من الناحية السياسية للثورة الفرنسية وكرهه لتعاليمها وإجراءاتها وحنينه للعهد الملكى .. فإنه كان أحد أساتذة ومؤسسى " مدرسة اللغات الشرقية الحية "-Ecole des Langues Orien tales Vivantes التى أنشئت عام ١٧٩٥ بل وأصبح مديراً لها عام ١٨٢٤ مع أنه رفض أداء اليمين السياسية التى كانت الحكومة تفرضها على موظفيها قبل مباشرتهم للعمل . ونتيجة لتلك الوظيفة أصبح الاهتمام لدى ساسى هو اللغة العربية بعد أن كانت اهتمامته متنوعة . وفى عام ١٨٠٦ رُشِّح لمنصب الأستاذية فى معهد فرنسا " كوليج دى فرانس" مع أنه كان يشغل منذ ١٨٠٥ فصاعداً

منصب المستشرق المُقيم بوزارة الخارجية الفرنسية ، ولكنه عمل بعد ذلك سنوات كثيرة على تخريج المترجمين للعمل بقلم الترجمة الشرقية الفرنسى، إلى جانب تخريج باحثى المستقبل . وعندما تأسست الجمعية الآسيوية Société Asiatique عام ١٨٢١ لكى تجمع الباحثين والموظفين وغيرهم من المهتمين بالشرق (بما فيه الشرق الأدنى الإسلامى) انتُخب دى ساسى رئيساً لها عام ١٨٢٢ . وفى عام ١٨٣٢ أُنعم عليه بلقب النبيل بعد أن شغل مناصب هامة وكثيرة[٤١] .

بلغت أعمال دى ساسى ٤٣٠ عملاً منشوراً فى حياته ما بين سنتى ١٧٨٣ و ١٨٣٨ إضافة إلى أربعة أعمال نشرت بعد وفاته . تراوحت هذه الأعمال ما بين مؤلفات وتحقيقات ومترجمات واختيارت (منتخبات) وتلخيصات ومقالات . كان معظم هذه الأعمال يتعلق بالعربية وآدابها والباقى يتعلق بلغات أخرى كالفارسية . لقد ترجم إلى الفرنسية الكثير من أعمال المقريزى ومنها " نبذة على العقود فى أمور النقود " (١٧٩٦) وتلخيص لكتاب الخطط (١٧٩٧) وجزء من كشف الممالك والأوزان والمكاييل الرسمية فى الاسلام (١٧٩٩) اختصاراً من خطط المقريزى . وفى عام ١٨٠٥ ترجم " الحمام الزاجل " لميخائيل الصباغ (ت ١٨١٦) كما ترجم مقامات بديع الزمان الهمدانى ، وأصل الأدب الجاهلى عند العرب ، وكليلة ودمنة (١٦- ١٨٢٢) ومقامات الحريرى (١٨١٢) . وفى عام ١٨١٠ ترجم وحقق " الإفادة والاعتبار بمن فى مصر من الآثار " لموفق الدين عبد اللطيف البغدادى . وفى مجال الشعر ترجم الكثير من القصائد العربية مثل مُعلقة لبيد (١٨١٦) وقصيدة ميمون بن قيس الأعشى ، ومختارات من البردة للبوصيرى (١٨٠٦) ومختارات من شعر ابن الفارض (١٨٢٢) بالتعاون مع دولاغرانج . De La Grangeوفى ١٨٢٧ نشر " الدر المختار " وكان عبارة عن مختارات شعرية احتوت على " معلقة الأعشى " و "معلقة النابغة الذبيانى " . وفى النحو ترجم وشرح ألفية ابن مالك (١٨٣٣) [٤٢] . أما مؤلفاته فمنها " مبادئ النحو العام " و" المنتخبات العربية " (١٨٠٦ و١٨٢٧) وكتاب فى النحو العربى

(١٨١٠) و" مختارات من الكتابة العربية فى النحو " (١٨٢٥) و" دراسات فى العروض العربى " . كما ألف كتاباً عن الدروز ودينهم فى جزئين ، بالإضافة إلى مؤلفات قصيرة كثيرة فى موضوعات شرقية مثل المسكوكات الأثرية وأسماء الأعلام والنقوش والجغرافيا والتاريخ والموازين والمقاييس . وكان يتمتع بنشاط جم فى تحرير النصوص وكتابة المذكرات والتأريخ للعلوم الحديثة ، ويتابع كل ما هو مهم فى المباحث العلمية المتصلة بمجاله ، وإن كان ذا نهج لا يحيد عنه فى كتابته الخاصة . وعند ادوارد سعيد تعتبر كل أعمال ساسى فى جوهرها " مُنتخبات / مُختارات " تتخذ الشكل الرسمى للكتب التعليمية وتجتهد فى التنقيح إلى حد كبير . ويعتبر " الأنيس المفيد للطالب المستفيد " و" جامع الشذور من منظوم ومنثور " هو أشهر ما وضعه فى المنتخبات العربية . وقد ظلت منتخباته تُستخدم على نطاق بالغ الاتساع فى أوربا . لقد جمع فى " الأنيس المفيد للطالب المستفيد " بعض المختارات مثل لامية العرب للشنفرى وبعض أشعار المعرى وبعض مقامات بديع الزمان الهمذانى ، إلى جانب نصوص مختلفة من كتب الأدب والتاريخ والرحلات وغيرها . وقد نشره فى ثلاثة مجلدات طبعت بين سنتى ١٨٠٦ و١٨٢٦ (٤٣).

إن ما سبق يعنى أن دى ساسى كان من أبرز المستشرقين فى فرنسا عند وجود الطهطاوى فيها ، حتى اعتُبر أستاذاً لجيل أوربى كامل من المستشرقين وكان كل متخصص فى الثقافة العربية فى أوربا إبان القرن التاسع عشر ينسب إليه أصول حُجيته الفكرية ، وكانت الجامعات والأكاديميات فى فرنسا وألمانيا وإسبانيا والنرويج والسويد والدانمرك حافلة بالتلاميذ الذين تشكلوا على هدى خطاه ومن خلال لوحات المنتخبات التى هيأها عمله . أما سبب ارتباط اسمه ببداية الاستشراق الحديث فلا يرجع فحسب إلى أنه كان أول رئيس للجمعية الآسيوية ، بل أيضاً إلى دوره فى إعادة بناء وتشكيل النظام التعليمى (خصوصاً فى الدراسات الشرقية) فى فرنسا بعد الثورة . كما أن عمله وضع أمام العاملين بهذه المهنة مجموعة نصوص كاملة منتظمة ، ومذهباً تعليمياً عملياً وتقاليد

بحثية . ولا يقل أهمية عن ذلك أنه كان يشعر دائماً أنه يقف على أعتاب مشروع تنقيحى مهم ، فقد كان رائداً يُدرك ما يفعل ويكتب . لقد كان من المُحال الكشف عن الشرق كله بسبب ثرائه الكبير (فى المكان والزمان والثقافات) . وهكذا ركز دى ساسى على المنتخبات والنصوص المختارة ، على " اللوحة " واستقصاء المبادئ العامة . وفى هذا كله تتولى مجموعة صغيرة نسبياً من النماذج القوية تقديم الشرق إلى الطالب . كانت هذه النماذج قوية وذات سلطان لسببين : الأول ، أنه تتجلى فيها قدرات دى ساسى باعتباره حجة فى بابه ، ينتقى ببصيرته من الشرق ما ظل خبيئاً حتى تلك اللحظة بسبب بُعد الشرق وغرابته . والثانى لأن هذه النماذج تتمتع بطاقتها السيميائية الذاتية (أو التى أضفاها المستشرق عليها) للدلالة على الشرق . وتكمن أهمية دى ساسى البحثية أيضاً فى قدرته على التعامل بنجاح مع صعوبات كئود ، إذ كان يملك وسائل تقديم مجال لم يسبق وجوده إلى طلابه . لقد صنع الكتب والمفاهيم والنماذج . وكانت النتيجة إنتاج مادة عن الشرق ، ومناهج لدراسته ، وأمثلة لم تكن موجودة عند أحد ، حتى عند أبناء الشرق . ومع دى ساسى يصبح على المستشرق أن يقدم الشرق فى شكل سلسلة من الشذور التى تمثله ، وهى الشذور التى كان يُعاد نشرها ، وتُقدم لها الشروح والحواشى وتُحاط بالمزيد من الشذور أيضاً. وهكذا فإن هذا التقديم يستلزم نوعاً خاصاً ، أى المنتخبات[٤٤].

وإذا كان ادوارد سعيد يعتقد بعدم وجود اختلاف كبير حول أن الاستشراق الحديث يمثل جانباً من جوانب الامبريالية والاستعمار [٤٥] فإننا نرى أن استشراق دى ساسى لم يكن بعيداً عن السياسة [٤٦]. ومن هنا لا يمكن مُجاراة البعض فى أنه قدم فقط المشورة للحكومة الفرنسية فى الشئون الإسلامية[٤٧] أو أنه اتجه للاستشراق العلمى لا الاستشراق السياسى ، وأنه دُفع إلى إدراج نداء بونابرت بمصر فى مؤلفه " مقتطفات عربية " [٤٨] . إن مدرسة اللغات الحية – التى شارك فى تأسيسها وكان أستاذاً بها – كانت تابعة منذ تأسيسها عام ١٧٩٥ وحتى عام ١٨٣٢ لوزارة الداخلية ، وورد فى المادة الأولى من قانون

تأسيسها أنها " لتعليم اللغات الشرقية الحية ذات الفائدة الملموسة للسياسة والتجارة " [٤٩] . وعندما رُشِّح فى عام ١٨٠٦ لمنصب الأستاذية فى " كوليج دى فرانس " كان يشغل منذ عام ١٨٠٥ منصب المُستشرق المُقيم بوزارة الخارجية الفرنسية ، وكان عمله فيها ينحصر فى البداية فى ترجمة نشرات " الجيش الفرنسى " والبيان " المانيفستو " الذى أصدره نابليون عام ١٨٠٦ وكان الأمل المُرتجى من ترجمته إثارة " التعصب الإسلامى" ضد الأرثوذكسية الروسية . وعندما احتل الفرنسيون الجزائر عام ١٨٣٠ كان دى ساسى من ترجم " الإعلان العام " للجزائريين ، وكان وزير الخارجية يستشيره بانتظام فى جميع الشئون الدبلوماسية المتعلقة بالشرق ، وأحياناً كان وزير الحربية يستشيره . وبالإضافة إلى أنه أنشأ رابطة مُهمة بين البحوث الشرقية والسياسات العامة ، فقد بدأ فى عمله – ولو على استحياء ، ولأول مرة فى أوربا منذ مؤتمر فيينا – تطبيق مبدأ منهجى متزامن مع المبحث العلمى[٥٠] . أما ترجماته لكتابات المقريزى " نبذة على العقود فى أمور النقود " (١٧٩٦) وتلخيصه لكتاب الخطط (١٧٩٧) ولجزء من كشف الممالك والأوزان والمكاييل الرسمية فى الاسلام .. فلا تخفى العلاقة بينها وبين الاحتلال الفرنسى لمصر . وعلى كل فهناك اتجاهاً بين الباحثين الآن لإعادة النظر فى العلاقة بين الاستشراق والاستعمار[٥١] . فمع أن هدف المستشرقين الأول والأخير إنما هو خدمة بلادهم وضمان مصالحها ، إلا أن هذه الخدمة كانت موزعة على مجالات عديدة : منها ما هو ضار ومنها ما هو نافع . وفى هذا الإطار كانت أهداف الاستشراق متنوعة فى فرنسا وغيرها : فمنها ما كان لخدمة المصالح الدينية التبشيرية ، ومنها ما كان لخدمة المصالح الاستعمارية والعسكرية ، ومنها ما كان لخدمة المصالح الاقتصادية والتجارية ، ومنها ما كان لخدمة الإعلام والجاسوسية ، ومنها ما كان لخدمة العلم والآداب والفنون والفكر عامة [٥٢] .

ذكر الطهطاوى دى ساسى فى أربعة مواضع رئيسية فى " تخليص الابريز " وتناولت العديد من القضايا . ومن الملاحظ أن دى ساسى هو أكثر من ورد

ذكـرهم من الفـرنسـيـين فى " تخليص الابريز " مع أنه لم يكن من مُـعلمى الطهطاوى المُباشرين وإن قرأ الطهطاوى الكثير من كتاباته ، كما شارك دى ساسى فى الامتحان النهائى للطهطاوى (٥٣) . وعلى كل فالبحث يهتم بالقضايا التى طرحتها أو أثارتها علاقة الرجلين والتى تعكس موقف شرقى من مستشرق فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، خاصة وأنه إذا كان الطهطاوى بالنسبة لمصر هو أحد أول وأشهر المجددين فى عصره ، فقد كان دى ساسى بالنسبة لفرنسا أحد أهم مشاهير المستشرقين . هذا مع الوضع فى الاعتبار أن الطهطاوى كان طالباً شاباً فى حوالى الثلاثين من عمره ، بينما كان دى ساسى عالماً فى أواخر حياته ، وإن اشتُهر عنه احترام الشباب الجاد والمبدع وتشجيعه على الوصول إلى غايته وطموحه ، ولذلك كان يقف إلى جانب كل من يشق طريقاً جديدة فى العلم أو المعرفة (٥٤) .

ففى عرضه لأوضاع المصريين والشوام بمرسيليا كتب : " يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام ، الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر . وهم جميعاً يلبسون لبس الفرنسيس وندر وجود أحد من الإسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس ، فإن منهم من مات ومنهم من تنصر والعياذ بالله ، خصوصاً المماليك الجورجية والجركسية والنساء اللواتى أخذهن الفرنسيس صغار السن " . وقد ربط الطهطاوى ما سبق بوضع زبيدة بنت محمود العسال زوجة كليبر ، حيث كتب " ومثله ما حكاه لى بعضهم أن سر عسكر المسمى منو المتولى فى مصر بعد قتل الجنرال كليبر .. كان أسلم فى مصر نفاقاً كما هو الظاهر ، وتسمى عبد الله وتزوج ببنت شريف من أشراف رشيد . فلما خرج الفرنسيس من مصر وأراد الرجوع أخذها معه . فلما وصل رجع إلى النصرانية وأبدل العمامة بالبرنيطة ، ومكث مع زوجته وهى على دينها مدة أيام . فلما ولدت وأراد زوجها أن يُعَمِّد ولده على عادة النصارى ليُنَصِّره ، أبت الزوجة ذلك وقالت : لا أُنَصِّر ولدى أصلاً ولا أُعرضه للدين الباطل . فقال لها الزوج إن كل الأديان حق وأن مآلها واحد ، وهو عمل الطيب . فلم ترض بذلك

أبداً . فقال لها إن القرآن ناطق بذلك وأنت مسلمة فعليك أن تُصدقى بكتابِ نبيك . ثم أرسل بإحضار أعلم الإفرنج باللغة العربية البارون دى ساسى ، فإنه هو الذى يعرف يقرأ القرآن ، وقال لها سليه عن ذلك . فسألته ، فأجابها بقوله : إنه يوجد فى القرآن قوله تعالى إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فحجها بذلك فأذنت بمعمودية ولدها . ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ما قيل أنها تنصرت وماتت كافرة " (٥٥) .

لقد استعرض الطهطاوى ، فى قدر من الحسرة ، أوضاع من ذهبوا إلى فرنسا مُوضحاً أن معظمهم من " النصارى " أو ممن " تنصروا " على يد الفرنسيين " والعياذ بالله " وضرب المثال الأهم بزبيدة العسال التى تنتمى إلى الأشراف مثله . وإذا كان قد حمَّل الفرنسيين مسئولية من تحولوا عن الإسلام ، فإنه ضرب المثال بدى ساسى الذى استعان به " الجنرال مينو " لإقناع زوجته " زبيدة " بالموافقة على " معمودية ابنها " بل وربما تحولت هى نفسها إلى المسيحية . بالطبع لم يكن الطهطاوى ليوافق بأى حال من الأحوال على ما حدث . ومع ذلك فإنه – وهو الشيخ الأزهرى – لم يتعامل مع التأويل المُغرض للآية من دى ساسى لإقناع السيدة زبيده ، ولم يورد مباشرة ما يدحض رأى دى ساسى . ولا ندرى ما إذا كان الطهطاوى قد كتب المزيد عن موقفه الشخصى ثم حذفه بعد ذلك أم أنه توقف عند هذا فقط ، مع أنه كان فى بداية رحلته ولم يكن قد تعرَّف بعد على دى ساسى وغيره من المستشرقين . ومع ذلك فإن رفضه الضمنى لما حدث تعكسه مصطلحاته الدالة التى أوردها ، كما يلخصه بيت الشعر الذى اختتم به حديثه السابق ، وهو :

كل دين إن فاتك الإسلام فمحال لأنه أوهام

فإذا انتقلنا للحالة الثانية التى ذكر الطهطاوى فيها دى ساسى نجده وقد تجنب " البُعد الدينى " واتجه للبُعد العلمى و" تناسى " الدور السلبى الذى ساهم

فيه دى ساسى من قبل فى " تنصير " زبيدة وابنها ، وذَكره بما يُعلى من أستاذيته وقيمته . ففى حديثه عن علاقة المستشرقين باللغة العربية ذكر أنه " مع ما يتراءى أن الأعجام لا تفهم لغة العرب إذا لم تُحسِن التكلُم بها كالعرب ، فهذا لا أصل له . ومما يدلك على ذلك أنى اجتمعت فى باريس بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير فى بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات المشرقية ، خصوصاً اللغة العربية والفارسية ، يسمى البارون سلوسترى دساسى ، وهو من أكابر باريس وأحد أعضاء جملة جمعيات من علماء فرانسا وغيرها . وقد انتشرت تراجمه فى باريس ، وشاع فضله فى اللغة العربية حتى أنه لخص شرحاً للمقامات الحريرية وسماه مختار الشروح . وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه ، لا بواسطة معلم إلا فى مبدء أمره . ولم يحضر مثل الشيخ خالد ، فضلاً عن حضور المُغنى ، مع أنه يمكنه قراءة المغنى . كيف لا وقد درس البيضاوى عدة مرات ! " .

إن الطهطاوى فيما سبق يذكر شيئاً جديداً فى موقف المشايخ الشرقيين من المستشرقين ، بناء على علم وإعجاب لا يصل إلى حد التهويل . لذا أتبع ما سبق بالقول " غير أنه حين يقرأ ينطق كالعجم ولا يُمكنه أن يتكلم بالعربية إلا إذا كان بيده الكتاب . فإذا أراد شرح عبارة أغرب فى الألفاظ التى يتعذر عليه تصحيح نطقها " . وللتدليل على صحة رأيه كتب " ولنذكر لك خطبته فى شرحه لمقامات الحريرى لتعرف نَفَسه فى التأليف وقلم عبارته فإنه بليغ ، وإن كان به يسير من الركاكة . وسبب ذلك أنه تمكن من قواعد الألسن الإفرنجية فلذلك مالت إليها عبارته فى العربية " . وفى هذا الإطار أورد المقدمة العربية التى كتبها دى ساسى فى ترجمته للمقامات موضحاً أنه " حاول فيها الجرى على نهج دينه ودين الإسلام من غير أن يغبن أحدهما " .

والواقع أن ما كتبه دى ساسى فى المقدمة العربية ربما بدا مُدهشاً للطهطاوى الأزهرى. لقد ورد فيها " بسم الله المبدئ المعيد . الحمد لله العالى المتعالى الذى له الأسماء الحسنى ، ولا يُخالط صفائه عز وجل من صفات

المخلوق شئ أقصى ولا أدنى . العليم الذى ليس لعلمه نهاية ، والحكم الحكيم الذى حكمه وحكمته وراء كل حد وغاية . لا يحصُر لاهوت وجوده زمان ومكان ، ولا يشوب صفاء جبروته شائبة زيادة ولا نقصان . مُسبب الأسباب الذى لا يتحرك فى أطراف الأرض والسماء مُتحرك إلا بقدرته وإرادته ، ولا يتكلم فى أكناف الآفاق مُتكلم إلا بإلهامه وإفادته . أحمده حمد من اعترف بتقصير فهمه وضعف عقله ، فهداه برحمته وتوفيقه إلى تحصيل بعض العلوم والفنون . وأشكر له شكر من كان يخبط فى ظلام الجهل ، فأخرجه برأفته وتأييده إلى فضاء الرشد ونور التمييز حتى عرف الحق اليقين من أباطيل الظنون . ثم أتوسل إليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين وأوليائه المقربين الذين كل واحد منهم كالغُرة على جبهةِ الدهر وكالتاج على مفرقِ العصر . وأسأله عز وجل أن يجعلنى من عباده المُهتدين الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، إنه على كل شئ قدير وبإجابة هذا الدعاء جدير " (٥٦) .

أضاف الطهطاوى بعد ذلك أن دى ساسى " ترجم إلى الفرنساوية عدة مقامات (من المقامات البديعية والمقامات الحريرية) وفى مجموعه كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد ، وجامع الشذور من منظوم ومنثور . وبالجُملة فمعرفته خصوصاً فى اللغة العربية مشهورة ، مع أنه لا يمكنه أن يتكلم بالعربى إلا بغاية الصعوبة . وقد رأيت له فى بعض كتبه توقُفات عظيمة وإيرادات جليلة ومُناقضات قوية . وله اطلاع عظيم على الكتب العلمية المؤلفة فى سائر اللغات . وسبب ذلك كله تمكُنِه من لُغته بالكُلية ، ثم تفرُغه بعد ذلك لمعرفة اللغات .. ومن جملة مؤلفاته الدالة على فضله كتاب فى النحو سماه التحفة السنية فى علم العربية ، فإنه ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يُسبق به أبداً . وله مجموع سمَّاه المُختار من كُتبِ أئمة التفسير والعربية فى كشف الغطاء عن غوامض الإصطلاحات النحوية واللغوية ، فقد جمعه وترجمه من العربية إلى الفرنساوية . وله غير ذلك من المؤلفات والتراجم .. وشهرته بالفضل فى بلاد الإفرنج لا تُنكر حتى أنه قد أُتحف بعلامات الشرف من كبار ملوكهم . واتساع

دائرة هذا الحبر فى معرفة لغات أهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة بها يسهل تصديق ما قيل فى حق الفارابى فيلسوف الإسلام من أنه كان يُحسن سبعين لساناً " [٥٧] .

إننا أمام ترجمة مهمة ودقيقة لدى ساسى ، وهى ترجمة توضح عدة أمور . فالطهطاوى يوضح خطأ ما يُشاع عن أن الأوربيين لا يفهمون اللغة العربية طالما لم يُحسنوا التحدث بها ، وساسى هو الحالة التى يدلل بها على صحة ما يقول نظراً لتأنيه فى تعلمه للعربية . لقد مدحه باعتباره " من أكابر باريس " وعضو عدة جمعيات علمية فرنسية وغير فرنسية ، وترجم عدة أعمال من العربية إلى الفرنسية خاصة شرحه الملخص لمقامات الحريرى الذى أبان فيه عن احترامه لدينه وللإسلام . فى الوقت نفسه أوضح الطهطاوى إعجابه بمنهج دى ساسى وببعض القضايا التى طرحها فى مؤلفاته وكتاباته خاصة كتابه " التحفة السنية فى علم العربية " [٥٨] الذى " ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يسبق به أبداً " بالإضافة إلى أنه " له مجموع سماه المختار من كتب أئمة التفسير والعربية فى كشف الغطاء عن غوامض الإصطلاحات النحوية واللغوية ، جمعه وترجمه من العربية إلى الفرنساوية " . وإذا كان من الثابت أن الطهطاوى اكتسب وعياً تاريخياً خلال وجوده بباريس ، خاصة وقد وقف على جهود المستشرقين التى بلغت درجة من القوة آنذاك ؛ فكان أول من كتب عن تاريخ مصر القديم مُستخدماً المنهج العلمى الحديث لاطلاعه على جهود علماء المصريات ، وكانت فكرة مصر القديمة وبعث مجدها قد استحوذت على وعيه وصارت أحد أهدافه[٥٩] .. فإننا لا نستبعد تأثره بمنهج دى ساسى حينما وضع كتاب " التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية " الذى يُعتبر – بمعيار عصره – جديداً فى شكله ومنهجه فى التأليف [٦٠] لاسيما وأن " تعليم أصول اللغة الفرنساوية " كان من أول الأمور التى أولاها الطهطاوى الاهتمام فى فرنسا ، وخاصة " الاعراب النحوى والاعراب المنطقى : يعنى تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق " [٦١] . ومع ذلك وأن الطهطاوى فى هذه القضية يبدو فى موقف

الاعتراف بأستاذية دى ساسى العلمية ، إلا أنه لا يُهمل صعوبة نطقه للعربية وأنه " ألكن أخن " وأن بأسلوبه بعض الركاكة .

إن اعتدال أحكام الطهطاوى (الشرقى المسلم) من دى ساسى (المستشرق المسيحى) فيما سبق يمكن توضيحه أيضاً مما كتبه معاصره الشدياق فى " الساق على الساق " . فمع أن الشدياق خرج عن أسلوبه الساخر والناقد للجميع وحاول أن يكتب شيئاً جيداً عن دى ساسى " ثُم لا يُنكر أيضاً أن مسيو دساسى حصل بقوة اجتهاده ما أقْدَره على فهم كثير من كتبنا ، بل على الإنشاء فى لغتنا أيضاً " .. إلا أن الشدياق لم يستطع ذلك للنهاية حيث كتب " على أنه رحمه الله لا يُنظم فى سلك العلماء المحررين . فقد فاته أشياء كثيرة فى الأدب واللغة والعروض . وأنى طالما والله أثنيت على براعته وأعظمت علمه وفضله . إلا أنه لما صارت مهارته وبراعته هذه سبباً للفساد فإنها هى التى جرَّأت غيره على التصدر للتدريس بلغتنا .. واعلم أيها القارئ العربى إنى لم أجد من بين جميع ما طَبعوا بلغتنا جديراً بالانتقاد سوى مقامات الحريرى " . وهكذا تبدو خاتمة " الساق على الساق " أمراً مُستغرباً وناتئاً لأنها هجوم على المستشرقين – خاصة ساسى وبرسيفال – وسُخرية من أغلاط مدرسى اللغة العربية فى مدارس باريس وترجماتهم لبعض عيون الأدب الكلاسيكى . لقد عاب الشدياق قول أحد المستشرقين أن فى أوربا " كل ما يلزم لعلم اللغات الشرقية ، إذ فيها خزائن كتب ومدارس وعلماء جديرون بإدارتها " وردَّ بالقول " وأنا أقول إن هذه الدعوى كذب ومين وإفك وافتراء وتُرَّهة وتزوير وبهتان " . وبعدها انتقل للكشف عما وقع فيه المستشرق من أخطاء فى الترجمة عن الفارسية لأنه " استكبر أن يسأل أحداً من أهل العلم عن المعنى . ولكنها عادة له ولأسلافه وأساتيذه فى أنهم حين يشتبه عليهم المعنى يعمدون إلى الترقيع والترميق والتلفيق " كما أن هؤلاء لم يأخذوا العلم عن شيوخه وإنما تطفلوا عليه " إنهم يتخبطون بشكل عشوائى لا يفهمون ما يترجمونه من كتب ، ولا يدرون جزل الكلام من ركيكه وثبته من مصنوعه " . ولا يكتفى الشدياق بعدِّ عيوب لغة المستشرقين بل يشير إلى

ترجمات فرنسية محددة ، منها ترجمة مقامات الحريرى التى أورد بشكل مفصل الأخطاء الموجودة فيها . وفى نقده للمستشرقين نفى أن يكون المصريين أو الفرس فى حاجة للتعلم على أيدى هؤلاء " ومتى تهور أحد هؤلاء الوجوه تهورت معه الرعية بأسرها " ، كما دخل فى حوار ضمنى مع الطهطاوى الذى أثنى على المستشرقين وبدا معجباً بهم ، مع أن الطهطاوى لم تفُته ملاحظة أن دى ساسى لا يمكنه التكلم بالعربى إلا بغاية الصعوبة . وعلى كل فحوار الشدياق مع الطهطاوى طال أيضاً تصور كل منهما لباريس ، حيث حاول أن يورد ما أضرب الطهطاوى عن ذكره من خلال " الغُرفيات " التى أوضح فيها الشدياق بؤس حاله فى باريس على نقيض عيشة الطهطاوى ورفاقه [٦٢] .

أما المرة الثالثة التى ذكر فيها الطهطاوى دى ساسى فكانت فى سياق ما كتبه عن " دين أهل باريس " وبما يعنى أنها كانت عودة للنقاش فى أمور دينية . لقد ذكر الطهطاوى " قد تقدم لنا أن دين الدولة هو دين النصارى القاثوليقية ، وقد بطُل هذا الشرط بعد الفتنة الأخيرة . وهم يعترفون للبابا ، الذى هو ملك رومة ، بأنه عظيم النصارى وكبير ملِتهم . وكما أن الدين القاثوليقى هو دين الدولة الفرنساوية ، كذلك هو دين غالب الناس عندهم . وقد يوجد بباريس الملة النصرانية المُسماة البروتستانتية وغيرها ، ويوجد بها كثير من اليهود المستوطنين ولا وجود لمسلم مستوطن بها . وقد أسلفنا أن الفرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الإسم ، فهم داخلون فى اسم الكتابيين ، فلا يعتنون بما حرَّمه دينهم أو أوجبه أو نحو ذلك . ففى أيام الصيام فى باريس لا ينقطع أكل اللحم فى سائر البيوت إلا ما ندر كبعض القسوس وبيت ملك الفرنسيس القديم . وأما باقى أهل المدينة فإنهم يستهزءون بذلك ولا يفعلونه أبداً ، ويقولون أن سائر تعبُدات الأديان التى لا نعرف حكمتها من البدع والأوهام . ولا تُعَظَّم القسوس فى هذه البلاد إلا فى الكنائس عند من يذهب إليهم ، ولا يُسأل عنهم أبداً فكأنهم ليسوا إلا أعداء للأنوار والمعارف . ويُقال إن غالب ممالك الإفرنج مثل باريس فى مادة الأديان " .

إن الطهطاوى (الشرقى) فيما سبق يستمر فى نقده لتدين الباريسيين / الفرنسيين لا للدين المسيحى ، وهو أمر كان من الممكن أن يحتفظ به لنفسه ولا يسجله فى رحلته ، خاصة وقد قدمها لدى ساسى وغيره من المستشرقين الفرنسيين لقراءتها ، ولكن هذا لم يحدث . أما الذى حدث فهو أن ما كتبه لفت انتباه دى ساسى (المستشرق) فتوقف للرد عليه . وهنا أورد الطهطاوى الرد بحذافيره " ثم إن مسيو دساسى لما اطلع على ذلك كتب عليه ما نصه : قولك إن الفرنساوية ليس لهم دين البتة وإنهم ليسوا نصارى إلا بالإسم فيه نظر . نعم إن كثيراً من الفرنساوية ، خصوصاً من سكان باريس ، ليسوا نصارى إلا بالإسم فقط ، لا يعتقدون اعتقادات دينهم ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم فى أعمالهم لا يتبعون إلا أهواءهم . تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة . تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون إلا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، وإذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم . ولكن فيهم أيضاً من يُقيم على دين آبائه يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل الصالحات ، وهم طائفة لا تُحصى من الرجال والنساء ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب . غير أنهم فى ورعهم وتُقاهم على مراتب شتى . منهم من يُشارك عامة الناس فى تصرفاتهم ويحضر معهم فى محافل اللذات ؛ أعنى السبكتاكل والبال ومجامع الأغانى . ومنهم المُتقشفون المُعرضون عن كل ما تشتهيه الأنفس ، وهؤلاء أقل عدداً . وإن دخلت كنائسنا أيام الأعياد المعظمة ظهر لك صحة قولى " . وفى تعليقه لم يُنكر الطهطاوى ما ذهب إليه دى ساسى ولكنه كتب أن " الحامل له على ذلك كونه من أرباب الديانة وعددهم نادر لا حُكم له " (٦٣) .

وكما هو واضح اتصف الحوار المُتبادل بقدر من الموضوعية والتحضر، مع أنه كان فى قضية خلافية تتصل بقضايا الدين فى المجتمع الباريسى والفرنسى. فلا الطهطاوى أحجم عن إبداء رأيه فى قضية عدم تديُّن الفرنسيين رغم أنه كان طالب بعثة ، ولا دى ساسى " الأستاذ " توقف عن الرد عليه ، خاصة وأنه مُتديِّن " من أهل الديانة " ويرتبط تعليمه منذ بدايته بمؤسسة دينية

كاثوليكية مُحافظة. ومن هنا يمكن القبول بأن الرسائل التى كتبها دى ساسى وغيره إلى رفاعه لم تُكتب إلا إذا كان قد نال فى نفوسهم مكانة سامية أحرزها بذكائه وإكبابه على العلم ومساجلته لهم فى مجالسهم ومعاهدهم مما حببه إلى نفوسهم (٦٤) .

أما المرة الرابعة التى ذكر فيها الطهطاوى دى ساسى فجاءت تحت عنوان "فى بعض مراسلات بينى وبين بعض من كبار علماء الفرنساوية غير مسيو جومار" . وهنا أورد العديد من رسائل ساسى إليه، وكانت فى أمور شتى " فممن كاتبنى عدة مرات مسيو دساسى، ولنذكر لك بعض مكاتيبه، فمنها ما كتبه باللغة العربية ومنها ماكتبه باللغة الفرنساوية". وما ذكره الطهطاوى يعنى أن هناك رسائل أخرى وصلته من دى ساسى ولم يذكرها. أما الرسالة الأولى التى عرضها فكانت عن قواعد اللغة الفرنسية وجاءت كما يلى "من الفقير إلى رحمة ربه سبحانه وتعالى إلى المحب العزيز المكرم والأخ المعز المحترم الأخ الشيخ الرفيع رفاعه الطهطاوى صانه الله عز وجل من كل مكروه وشر وجعله من ذوى العافية وأصحاب السعادة والخير. أما بعد فإن القطعة التى أكملت المُطالعة فيها من كتابك النفيس وحوادث إقامتك فى باريس رددتها إليك على يد غلامك ويصلك صحبتها حاشية منى على ما تقوله فى باب تصريف الفعل فى لغتنا الفرنساوية. فإذا نظرت فيها تبين لك صحة ما نستعمله من صيغة الفعل الماضى. فمن الواجب عليك أن تصنف كتاباً يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند أمم أوربا كلها وفى ممالكها، حتى يهتدى أهل مصر إلى موارد تصانيفنا فى فنون العلوم والصناعات ومسالكها، فإنه يعود لك فى بلادك أعظم الفخر ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر ودمت سالما. المحب سلوسترى دساسى " (٦٥) .

ربما كان من المناسب القول بأن الحوار السابق كان حواراً علمياً حول " قواعد اللغة الفرنسية " التى امتدحها الطهطاوى لسهولة قواعدها وتنظيمها ، مقارنة بقواعد اللغة العربية . كما نلاحظ استمرار الاحترام المتبادل رغم ظهور

دى ساسى فى موقف الأستاذ الناقد الذى لا ينسى ضرورة توجيه الطهطاوى للقيام بتأليف كتاب عن قواعد اللغة الفرنسية لتكون مفيدة للمصريين . وبالطبع لا تخفى أهمية ذلك عند المستشرق دى ساسى الذى يسعى لنشر لغته وثقافته وحضارته فى مصر والشرق العربى ، خاصة فى ظل الصراع الأوربى " الثقافى والحضارى " فى الشرق . وفى هذا الإطار لم ينس دى ساسى تذكير الطهطاوى بالمكاسب الآنية والمُستقبلية فى مصر إذا ما أنجز هذا العمل .

أما الخطاب الثانى فكان فى فبراير ١٨٣١ ويعتبر الأهم لأنه تناول تقييم دى ساسى لما كتبه الطهطاوى فى " تخليص الإبريز " . لقد بدأ بعبارة دالة " إلى حبيبنا الشيخ رفاعه الطهطاوى حفظه الله وأبقاه . أما بعد فإنه سيصلك مع هذا ما طلبته منا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك " . بعدها أبدى دى ساسى وجهة نظره فيما ورد بالكتاب وكتب أن " كل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية وعوايدهم وسياساتهم وقواعد دينهم وعلومهم وآدابهم وجدناه مليحاً مُفيداً يروق الناظر فيه ويُعجب من وقف عليه . ولا بأس أن تعرض خط يدنا على مسيو جومار . وإن شاء الله يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة سعادة الباشا ويُنعم عليك بما أنت أهله " . أما نهاية الخطاب فجاءت ودية كالعادة " دُمت على أحسن حال . مُحبك الداعى سلوسترى دساسى " . وما سبق يوضح أن الخطاب يحمل التقدير للطهطاوى وعمله ، ولا يحمل أى قدر من النقد الذى كان دى ساسى يستطيعه ، وسبق له أن أبداه (٦٦) .

على أن دى ساسى أرسل للطهطاوى مع هذا الخطاب " ورقة باللغة الفرنساوية " ليطلع عليها جومار ، وذلك بناء على طلب من الطهطاوى الذى ترجمها كالتالى " لما أراد مسيو رفاعه أن أطَّلع على كتاب سفره المؤلف باللغة العربية قرأت هذا التاريخ إلا اليسير منه ، فحق لى أن أقول أنه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وأن منه يفهم إخوانه من أهل بلاده فهماً صحيحاً عوايدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعملية ، ولكنه يشتمل على بعض أوهام إسلامية . ومن هذا الكتاب يُعرف علم هيئة العالم ، وبه يُستدل على أن المؤلف

جيد النقد سليم الفهم . غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرانسا بما لا يحكم به إلا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن . وقد أحرص فى باب العلوم على ذكر المعلومات توطئة للتوصل إلى المجهولات ، خصوصاً فى نُبذته المتعلقة بعلم الحساب وبهيئة الدنيا . وعبارة هذا الكتاب فى الغالب واضحة غير مُتكلف فيها التنميق كما يليق بمسائل هذا الكتاب ، وليست دائماً صحيحة بالنسبة لقواعد اللغة العربية ، ولعل سبب ذلك أنه استعجل فى تسويده وأنه سيُصلحه عند تبييضه . وفى التكلم على علم الشعر ذكر استطراداً بعض أشعار عربية أجنبية عن موضوع هذا الكتاب على ما يظهر لى ، لكنه ربما أعجب ذلك إخوانه من أهل بلاده . وفى الكلام على تفضيل الصورة المدورة على غيرها من الأشكال ذكر بعض أشياء قليلة الجدوى فينبغى له حذفها . وما ذكرت هذه الأشياء وبيَّنتها هذا التبيين إلا للإعلام بأنى دققت النظر فى قراءتى هذا الكتاب . وبالجملة فقد بان لى أن مسيو رفاعه أحسن صرف زمنه مدة إقامته فى فرانسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة وتمكن منها كل التمكن حتى تأهل لأن يكون نافعاً فى بلاده . وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس وله عندى منزلة عظيمة ومحبة جسيمة " (٦٧) .

إن الخطاب السابق ، وإن حمل بعض المديح فى الطهطاوى وكتابه ، إلا أنه حمل نقداً واضحاً فى أكثر من موضع ، وبما يختلف عما ورد فى رسالته إلى الطهطاوى . لقد وعى الطهطاوى ذلك ومن هنا كان تقييمه للخطاب على أنه " بالتقريظ أشبه " . وإذا تغاضينا عن قول دى ساسى " وفى الكلام على تفضيل الصورة المدورة على غيرها من الأشكال ذكر بعض أشياء قليلة الجدوى فينبغى له حذفها ".. فإن لنا أن نتوقف عند قوله أن لغة الكتاب " ليست دائماً صحيحة بالنسبة لقواعد اللغة العربية " . ومع أن دى ساسى برَّر ذلك باحتمال أن يكون الطهطاوى " استعجل فى تسويده وأنه سيُصلحه عند تبييضه " فلنا أن نتساءل عن علاقة ذلك بنقد الطهطاوى السابق للأسلوب اللغوى الركيك لدى ساى ؟! .

ومع أن دى ساسى نقد استطراد الطهطاوى عند حديثه عن الشعر لأنه ذكر " بعض أشعار عربية أجنبية عن موضوع الكتاب " فالأهم قوله " لكنه ربما أعجب ذلك إخوانه من أهل بلاده " . فهل يمكننا هنا الاكتفاء بالحديث عن بعض مظاهر التباين فى الأسلوب والذوق بين الآخر الغربى والأنا الشرقى ، أم أن بإمكاننا ربطه أيضاً بقضية تعالى الآخر الغربى ؟! . أما قمة النقد فكانت فى قول دى ساسى أن الكتاب يحتوى على " بعض أوهام إسلامية " وأن الطهطاوى " ربما " حكم على كل أهل فرنسا وفقاً لحكمه على أهل باريس . ودون تعسف فى تأويل ما قصد به دى ساسى من قوله أن بمخطوط تخليص الإبريز " أوهام إسلامية " إلا أنها بدون شك تعنى شيئاً ما مرتبطاً بالثقافة الدينية التقليدية للطهطاوى التى فضل دى ساسى عدم الخوض فيها ، وإن لم يتوقف عن الإشارة إليها كنوع من توثيق وجهة نظره المختلفة . وباستثناء هذه القضية ، يبدو أن الطهطاوى استفاد بعد ذلك من بعض هذا النقد عندما قدم النسخة الأخيرة من كتابه إلى المطبعة (٦٨) .

وهنا من المفيد عرض رأى كوسين دى برسيفال "مدرس اللغة العربية الدارجة " فى " دار كتب خانه السلطانية بباريس " مقارنة مع رأى دى ساسى السابق . لقد كتب الطهطاوى إلى برسيفال ليُبدى رأيه هو الآخر فى " تخليص الإبريز " . وفى ٢٤ فبراير ١٨٣١ تلقى منه رداً جاء فيه " حضرة المحب العزيز الأكرم الفصيح اللسان والقلم جناب الشيخ رفاعه المحترم حفظه الله آمين . بعد إهدائكم جزيل السلام ومزيد المحبة والإكرام ، فقد ورد علينا عزيز مكتوبكم البارحة ، فبادرنا بقضاء حاجتكم ، فواصل لكم طية تحرير تحتوى على رأينا فى كتاب حوادث سفركم الذى تفضلتم علينا باطلاعنا عليه . وبالحقيقة قلنا مثل ما هو اعتقادنا وشرحنا ما وجدنا فيه من المحاسن. وأما بخصوص المذام فما لقينا من ذلك شيأ . وحيث أنكم عازمون على السفر فى آخر هذا الشهر فالمأمول من حُسن محبتكم أنكم بعد وصولكم بالسلامة إلى بلادكم لا تُخرجونا من خاطركم وتواصلونا بالإعلام بصحتكم . ونترجاكم أيضاً إذا طبع

كتابكم تبعثوا لنا منه نسخة ، وبذلك تُصيرونا ممنونين ولأفضالكم شاكرين ، والله تعالى يحفظكم والسلام " [٦٩]. إن ما سبق يعنى أن الطهطاوى أراد الحصول على رأى برسيفال صراحة فى الكتاب ، وخاصة فى " المذام " التى وردت فى شهادة دى ساسى ، والتى يبدو أن الطهطاوى لم يرتح إليها . وكما هو واضح ، حملت رسالة برسيفال للطهطاوى المديح له ولكتابه .

لكن اللافت أن رسالة برسيفال الأخرى عن الكتاب إلى جومار حملت المديح أيضاً وكان رأيه فيها مختلفاً عن رأى ساسى وأكثر اتساقاً . لقد أورد الطهطاوى ترجمتها عن الفرنسية وجاء فيها " قرأت بالتأمل مؤلف الشيخ رفاعه الملقب بتخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، فوجدته يتضمن حكاية صغيرة فى سفر المصريين المبعوثين إلى فرانسا .. وتشتمل على تخطيط مدينة باريز وعلى نُبذات موجزة فى جملة فروع من العلوم المطلوبة التعليم من هؤلاء التلامذة . وقد ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيراً من المدح ومصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف ، فإنه أهدى لهم نُبذات صحيحة من فنون فرانسا وعوايدها وأخلاق أهلها وسياسة دولتها . ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوربا فى العلوم البشرية والفنون النافعة ، أظهر التأسف على ذلك وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام ويُدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة ويُولِّد عندهم محبة تعلُّم التمدن الإفرنجى والترقى فى صنايع المعاش . وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك . وما نظر فيه فى بعض العبارات يدل فى الغالب على سلامة عقله وخلوه من التعسف والتحامل . وعبارة هذا الكتاب بسيطة أى غير متكلف فيها التنميق ، ومع ذلك فهى لطيفة . وحين كانت نسخة هذا الكتاب بيدى كان الجزء الذى يتعلق بالعلوم والفنون غير تام ، فما رأيت منه إلا نُبذة فى الرياضيات وعلم هيئة الدنيا ومبادئ أصول الهندسة والجغرافيا الطبيعية . فهذه النُبذات وإن كانت موجزة إلا أنها مُشبعة ، فيترجى أن المؤلف يدوم على تأليف النُبذات الباقية بهذه المثابة . وإذا اجتمعت هذه النبذات فى هذا الكتاب فإنها تكون

كتاب علوم مُستقل مُفتاحاً لغيره من العلوم نافعاً لأهل العربية . وإذا فرغ الكتاب بهذه الطريقة فإنه يُستدل به على رفعة عقل مؤلفه واتساع دائرة معرفته"(٧٠).

مرة أخرى يتضح الاختلاف بين شهادة دى ساسى وبرسيفال الذى نأى بنفسه عن أمور الدعاية لتدهور الشرق واستبداده وتقدم الغرب وحريته (٧١) وهو الاختلاف الذى كان فى مصلحة الطهطاوى الذى علق على ذلك بقوله " فإذا قابلت هذا المكتوب مع ما تقدم رأيت أن مسيو دساسى ومسيو كوسين اتفقا على حُسن هذا الكتاب وعلى بساطة عبارته ؛ أى عدم التأنق فيها وعلى نفعه لأهل مصر. وإنما مسيو دساسى عابه بثلاثة أشياء . الأول : اشتماله على بعض مسائل يعتقد أنها من أوهام الإسلام. الثانى: جعلنا ما يُنسب لمدينة باريس وغيرها من المدن عاماً لسائر بلاد فرانسا . الثالث : ذكرنا بعض أشياء قليلة الجدوى عند تفضيل الشكل المدور على غيره ". بعد ذلك عاد الطهطاوى للتأكيد على الأمر الذى لم يرتح إليه فى شهادة دى ساسى فكتب "وأما مسيو كوسين فإنه لم يتعرض لما جعله مسيو دساسى من باب الأوهام. ولما تحدثت معه فى شأن ذلك أجابنى بأنه لم ير ذلك مُضراً ، حيث أنى كتبت على ما هو فى اعتقادى وإلا لو تتبعت ما قاله الإفرنج ووافقت آراءهم للحياة أو غيره لكان ذلك محض موالسة " (٧٢) .

إننا فيما سبق علينا ملاحظة أن كوسين احترم الاختلاف فى الرأى حول الأمور الدينية مع أنه ربط بين " الشرق المتدهور " و" أهل الإسلام " واعتبر الطهطاوى من " التلامذة " . وربما استطعنا القول بأن موقف دى ساسى وكوسين فى مجمله إنما أصبح يعبر عن أنه تم التعامل مع الطهطاوى فى النهاية على أنه لم يعد مجرد طالب بعثة ، ولكن باعتباره من أهل العلم الناضجين ، وله حق إبداء الرأى دون وصاية .

أما الرسالة الثالثة والأخيرة من دى ساسى إلى " مسيو " رفاعه ، فكانت عند مغادرة رفاعه باريس فى طريق عودته إلى مصر ، ولذلك يمكن اعتبارها " رسالة

وداع " وتحمل التمنيات الطيبة . وقد أوردها الطهطاوى كما يلى : " بعد إهداء السلام إلى مسيو رفاعه ، يحصل لى حظ عظيم إذا جاء عندى يوم الاثنين الآتى والساعة ٣ إن أمكنه أن يسُرنى برؤيتى له لُحيظات لطيفة . ويحصل لى أيضاً غاية الانبساط إذا بعث لى أخباره بعد وصوله إلى القاهرة . فإذا لم يتيسر لى رؤيته طلبت له طريق السلامة ، ولا أزال أتذكر دائماً آثاره وأستشق أخباره مع انجذاب قلب وانشراح صدر " (٧٣) .

ومع أن عودة الطهطاوى إلى مصر أدت لانقطاع صلته بدى ساسى (الذى توفى عام ١٨٣٨) فمن الممكن القول بأن تأثير دى ساسى وفرنسا بقى فى الطهطاوى فى أكثر من أمر ، منها مدرسة الألسن وقضية المنهج والمصطلحات. لقد اقترح الطهطاوى – الذى اهتم بالتعريب كنوع من الأخذ بنهج الدولة العباسية(٧٤) – بعد عودته من فرنسا ورؤيته مدنية الغرب عن كثب وما تقدمه المدرسة الفرنسية المتخصصة باللغات الشرقية .. اقترح إنشاء مدرسة الألسن لتكون ، كالمدرسة الفرنسية ، مُلتقى لثقافة الشرق بالغرب ويمكن عن طريقها إعداد مترجمين للمصالح العامة وترجمة الكتب فى العلوم المختلفة ونقل التراث العلمى الغربى إلى مصر . وقد وافق محمد على على الاقتراح ، فأنشئت مدرسة الترجمة (الألسن) فى عام ٣٥ / ١٨٣٦ (٧٥) . وفيما يتصل بقضية المنهج والمصطلحات ، أتاحت له تلمذته على يد مستشرقين كبار – مثل دى ساسى وجومار وبرسيفال وشيفاليه - Chevalier فرصة أن يزودوه بما يلزمه من ألفاظ ومصطلحات تُقابل ما يجده عسيراً عند الترجمة والتأليف (٧٦) . وإذا كانت أعمال دى ساسى لم تصلح آنذاك لكى يترجمها رفاعه إلى العربية ، فإن منهجه واهتماماته كان من الممكن ترجمتها بشكل عملى . وعندما استدعاه سعيد باشا مع غيره من أعضاء الحكومة المصرية من أجل " طبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة عم بها الانتفاع فى الأزهر وغيره " كان منها " تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، والمقامات الحريرية وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت " (٧٧) . ويضيف البعض أن دى

ساسى عـرَّف الطهطاوى على مـخطوطات عـربيـة فى العلوم الطبـيـعيـة والطبـية حملها الفرنسيون معهم تُبيِّن ما للأزهر من دور فى الماضى للعناية بهذه العلوم ، حيث لم يكن التعليم فيه وقفاً على العلوم الدينية ، فـانطلق الطهطاوى بعد عودته إلى مصـر يُنـادى بتطوير الأزهر وبذل الجهـود لكى يُعيـد له مـجده العلمى وتعود إليـه تلك المكانة العلميـة المـرمـوقة التى كان عليهـا [٧٨] . ومع ذلك فمـن المـهم التأكيد على أن الطهطاوى رغم كونه من المثقفين الموسوعيين – حيث كتب فى الاقتصـاد والاجتماع والسياسـة والفكر والثقافة والتربية – لا يمكن النظر إلى كتاباته بمقياس واحد فى جميع مـراحل حيـاته ، ولا يُعقل أن يكون المعيـار الذى يُقيَّم به " تخليص الابريز " الذى ألفه عام ١٨٣٤ هو نفس المعيار لكتاب " مناهج الألباب " الصـادر عام ١٨٦٩ . ومن ثم فهناك ضـرورة لوجود تقسيم مرحلى لفكر الطهطاوى [٧٩] بحيث يراعى حجم التـأثير الذى تركته الدائرة الثقـافيـة الشرقية فيه مقارنة مع تأثير الدائرة الغربية .

أخيـراً يمكن القـول بأن الطهطاوى ، ومنـذ وجـوده فى باريس ، كـان على وعى ببعض أهداف الاستشراق . نفهم هـذا مما كتبـه عن أن من صفات الفـرنسيين أنهم " مع كثرة ميلهم إلى أوطانهم يحبون الأسـفار . فقد يمكثون السنين العديدة والمُدة المـديدة طوافين بين المشـرق والمغرب ، حتى أنهم قد يُلقون أنفسهم فى المـهالك لـمصلحـة تعـود على أوطانهم " كمـا أن " من خصـالهم مـحبـة الغـرباء والميل إلى معـاشـرتهم ، خصـوصـاً إذا كان الغـريب مُتجـمـلاً بالثيـاب النفيسـة . وإنمـا يحـملهم على ذلك الـرغبـة والتشـوف إلى السـؤال عن أحـوال البـلاد وعـوايد أهلها ليظفروا بمقصدهم فى الحضـر والسفر " [٨٠] . ونفهم هذا أيضاً مما كتبه عن مـخاطر زيادة حجم الـوجـود الأوربى فى مـصـر ، خـاصـة وأنه ولد عـام خـروج الفـرنسـيين وعـاش طفولته بين ذكريات الكبـار عن وجودهم فى البـلاد وحكمهم كـأجانب لهـا ، كمـا أنه كان بفـرنسـا عـام ١٨٣٠ عندمـا احتلت بلداً إسـلاميـاً هو الجــزئر ، حـيث تأثر بـذلك وأدرك خطورته . وبهـذا الإدراك نبَّـه على ضــرورة المـحافظة على الاستقـلال الوطنى وضرب الأمثلة على ضـرورة التمييـز بين فكر

أوربا وتقدمها ، وبين رفض الجوانب الاستعمارية فى مواقفها باستفادته هو من الجهود الفكرية للعلماء إبان الاحتلال الفرنسى لمصر ورفضه فى نفس الوقت لقول أحد علماء فرنسا بأن تنفيد ونجاح الاصطلاحات التى يقترحونها لتقدم مصر وعمرانها يتطلب " دوام هذه المملكة فى قبضة الفرنساوية " . ويعلق الطهطاوى على ذلك بالقول : " فكلامه مبنى على شُبهة واهية ، وهى أن مصر يسوغ أن تُصلحها فرانسا وأى مملكة تكون لها مُضاهية . فاعتقاد ذلك من الإيغال المُدهى، أو من باب التشهيات الفاسدة، وإنما يقتل النفوس التشهى"[٨١].

هكذا تخلص الدراسة إلى عدة أمور يمكن إيجازها فيما يلى :

- لا يمكن النظر لتفوق الطهطاوى على أنه من نتاج البعثة إلى فرنسا فقط، حيث كان للثقافة الشرقية دورها المهم والأسبق فى تكوينه ، وهو التأثير الذى بقى فيه حتى نهاية حياته . هذا ناهيك عن شخصية الطهطاوى الدءوبة فى البحث والتعلم والطموحة للترقى الشخصى والعام .
- ترك المستشرقين - ومنهم دى ساسى - تأثيراً فى منهج تفكير وكتابات الطهطاوى ، لكن هذا التأثير لم يُغيِّر من طبيعة تفكيره الذى بقى حتى النهاية مرتبطاً بالواقع المصرى ومعطياته وتقاليده الإيجابية .
- قامت العلاقة بين الطهطاوى والمستشرقين - ومنهم دى ساسى - على أسس عديدة ، ومرت بأكثر من مرحلة . صحيح أن بعض المستشرقين وضعوا أنفسهم فى محل الأساتذة الذين لهم حق التقييم والنقد والتقويم ، ولكن من الصحيح أيضاً أن الطهطاوى - إلى حد بعيد ومنذ البداية - أبدى رأيه صريحاً فيما أراد واحتفظ بشخصيته وقناعاته حتى النهاية ، وهو ما يعنى أن شخصيته الفكرية كانت ناضجة ، ولم تنضو تحت هيمنة الآخر .

وحتى لا يظل البحث مقصوراً على دراسة تأثير الغرب فى الشرق؛ تبقى الحاجة والمشروعية للتساؤل حول إمكانية المقارنة بين التأثير الذى تركته

الثقافة الشرقية وأبنائها فى المستشرقين (ومنهم دى ساسى) بمثل ما يمكن المقارنة بين التأثير الذى تركته فرنسا والغرب فى الشرقيين (ومنهم الطهطاوى) . وفى اعتقادنا أن هذا المجال البحثى لا يزال بحاجة ماسة إلى باحثين جدد (من المصريين والعرب خاصة) بإمكانيات لُغوية ومنهجية وبحثية جديدة ، خاصة مع وجود اتجاه بحثى معاصر فى الغرب يحاول إعادة النظر فى علاقة الشرق والغرب ، وبما يُعيد للشرق وأهله دورهم المهمل أو غير المعروف.

الهوامش

(١) من ذلك ، رحلة الوزير محمد الغسانى الأندلسى : رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ١٦٩٠ / ١٦٩١ ، تحرير وتقديم : نورى الجراح ، دار السويدى ، أبو ظبى ، ط١ ، ٢٠٠٢ .

(٢) من ذلك رحلة الموصلى التى كانت لأمريكا وإن زار البندقية وباريس ومدريد ولشبونة ولندن ، بالإضافة إلى روما التى حظيت على اهتمام كبير منه باعتباره كاثوليكى ، ويُعتقد أنه مات بها . وقد أمضى سنوات فى عدة دول أوربية قبل ذهابه إلى أمريكا وبعد عودته منها . إلياس الموصلى : الذهب والعاصفة ، رحلة إلياس الموصلى إلى أمريكا ١٦٦٨ / ١٦٨٣ ، تحرير نورى الجراح ، دار السويدى ، أبو ظبى ، ٢٠٠١ .

(٣) نعتقد أن علاقة المستشرقين بالشرقيين فى مصر أقدم من الطهطاوى وإن لم تدرس بدقة حتى الآن . أما الرحالة العرب فقليل منهم من اهتم بالكتابة عن أوربا قبل القرن التاسع عشر . انظر :

J.Heyworth Dunne; Rifä'ah Badaw? Räfi' at-Tahtäwi: The Egyptian Revivalist, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, London, Vol V, x-1939 - 1942. p. 401.

(٤) على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، ج ١٣ ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠١ ، ص ١٥١ . عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ، ص ٤٩٩ – ٥٠٣ . حسين فوزى النجار : رفاعه الطهطاوى رائد فكر وإمام نهضة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٨ ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٣ . أحمد زكريا الشلق : مفهوم السلطة عند رفاعه الطهطاوى ، ص ٩٨ ، بحث فى كتاب : رفاعه الطهطاوى رائد التنوير، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٧ .

(٥) يونان لبيب رزق : رفاعه الطهطاوى وقضايا عصره ، ص ٣٣ ، بحث فى كتاب : تاريخ مصر بين الفكر والسياسة ، سلسلة مصر النهضة ، عدد ٧٥ ، دار الكتب والوثائق ، القاهرة ، ٢٠٠٩ .

(٦) كتب طه وادى فى ذلك " لاشك أن صلة الطهطاوى بالأزهر .. طالباً ومعلماً وزميلاً للمتازين من شيوخه ، تجعل الحديث عن ثقافته الدينية واللغوية والبلاغية والتاريخية والأدبية العامة تحصيلاً لحاصل . فقد كانت تلك العلوم وحدها مركز الدائرة فى الدراسة الأزهرية " . طه وادى : ديوان رفاعه الطهطاوى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٩٣ ، ص ٢٩ .

(٧) رفاعة رافع الطهطاوى : تخليص الابريز فى تلخيص باريز ، دار الكتب والوثائق ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ٣ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٣ .

(٩) أحمد زكريا الشلق : مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

(١٠) حسين فوزى النجار : رفاعه الطهطاوى رائد فكر وإمام نهضة ، ص٧٧ . عبد الرحمن

الرافعى : عصر محمد على ، ص ٥٠٠ ، ٥٠١ .

(*) يرى البعض أن لمحمد على دوراً فى تشجيع الطهطاوى على كتابة أخبار رحلته ، ونحن نؤيد ذلك ، ونضيف أنه على الأقل أنه لم يمانع فيه . لم لا وقد شجع على طباعتها بالعربية وتوزيعها على موظفيه وأصدقائه ، بل وأمر بترجمتها إلى التركية .J.Heyworth Dunne; op. cit, p .401.

(١١) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ٤ . على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ١٥١ ، ١٥٦ وبينما ردد معظم الباحثين أن الطهطاوى تم اختياره كإمام لبعثة عام ١٨٢٦ بتوصية من العطار ، هناك من يؤكد على أنه ذهب إلى باريس منذ البداية كطالب بعثة وليتخصص فى " الترجمة " على وجه التحديد . إيمان السعيد جلال : المصطلح عند رفاعه الطهطاوى بين الترجمة والتعريب ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٥ - ٣١ .

(١٢) رفاعه الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٦٠ , أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢٣ . حسين فوزى النجار : رفاعه الطهطاوى رائد فكر وإمام نهضة ، ص ٦٨ - ٧٠ ، ٧٨ . زكريا الرفاعى : فكرة الدولة عند رفاعه الطهطاوى ، المكتبة العلمية ، المنصورة ، ٢٠٠٣ ، ص ٢٢ - ٢٤ .

(١٣) كان العطار عالماً يُقدِّر كل العلوم على اختلافها ، وإن رأى أن العلوم الشرعية هى أرقى العلوم ولا تمنع من دراسة أى علم آخر . ولقد كتب فى إجازة لأحد تلاميذه " والعلوم وإن كثرت أنواعها وتباينت أوضاعها ، فأجدرها قدراً ، وأرقها ذكراً ، وأبهاها حسناً ، وأفضلها اقتناء ، وأعلاها ارتقاء ، وأغزرها ارتواء ، وأكملها إشراقاً ، وأجملها اتساقاً ، العلوم الشرعية التى هى مقاصدها ولأجلها تلتمس فوائدها " . ومعنى ذلك أن كل العلوم تنتهى إلى العلوم الشرعية لأن مقاصد هذه العلوم هى الوصول إلى علم الشريعة . عبدالمنعم شميس : عظماء من مصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٥٠ ، ٥١ .

(١٤) عبد الرازق بن حسن البيطار : حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر ، تحقيق : محمد بهجة البيطار ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٣ ، ج١ ، ص ٤٨٩ - ٤٩٢ .

(١٥) يونان لبيب رزق : رفاعه الطهطاوى وقضايا عصره ، ص ٤٠ .

(١٦) نوافق " شميس " فى وجود " أخطاء كثيرة فى تاريخ مصر الحضارى .. تسببت فى إصدار أحكام خاطئة على حركة النهضة الثقافية المصرية فى العصر الحديث " ومنها القول بأنها كانت " مستوردة من أوربا " وأن " رجلاً مثل رفاعه بك نقل من فرنسا كل مظاهر الفكر الحديث ، ولم يدركوا معنى التفاعل الذى بدأ فى مصر قبل أن يسافر رفاعه ورفاقه إلى باريس " .. لكنا لا نوافق على تضخيم الدور الذى قام به العطار ، والذى اعتبر " عجيباً بمقياس عصره " . عبد المنعم شميس : عظماء من مصر ، ص ٤٥.

(١٧) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ٣ ، ٤ .

(١٨) رشح العطار فى البعثة إلى فرنسا - بخلاف الطهطاوى - بعض شباب الأزهر ، ومنهم

الشيخ محمد الدشطوطى (تخصص فى الطب والجراحة) والشيخ أحمد العطار (تخصص فى الميكانيكا) بالإضافة إلى ثلاثة مشايخ عادوا إلى مصر لأسباب صحية أو لعدم أهليتهم ، وشيخان طبيبان تعلما فى فرنسا وهما : نصر أبو الوفا وإبراهيم الحكيم . عبد المنعم شميس : عظماء من مصر ، ص ٤٧ .

(١٩) للمزيد : محمد صبرى الدالى : فى تطور رؤية الأنا للآخر .. صورة روسيا فى الكتابات التاريخية المصرية ١٥١٧ -١٩١٧ ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٧ ، ص ١٤٧- ١٥٥ .

(٢٠) رفاعه الطهطاوى : تخليص الإبريز ، ص٧ ، ٦٦ ، ٨٠ ، ١٦٠ . زكريا الرفاعى : فكرة الدولة عند رفاعه الطهطاوى ، ص ٤٧ - ٤٩ .

(٢١) كان مما قاله جومار لأعضاء البعثة " اقتبسوا من فرنسا نور العقل الذى رفع أوروبا على أجزاء الدنيا .. فمصر التى تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية ، وفرنسا التى تهذبكم وتعلمكم تفى ما عليها من الدين الذى للشرق على الغرب " . عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ، الاسكندرية ، ١٩٢٤ ، ص ٢٢ ، ٢٤ .

(٢٢) أحمد زكريا الشلق : مرجع سابق ، ص ١٠٢ .

(٢٣) كتب الطهطاوى أنه قرأ " كتاباً فى علم المنطق الفرنساوى .. وعدة مواضع من كتاب ليبرترواىال من جملتها المقولات ، وكتاباً آخر فى المنطق يقال له كتاب قندلياق غيّر فيه منطق أرسطو . وقرأت كتاباً صغيراً فى المعادن وترجمته . وقرأت كثيراً من كتب الأدب منها مجموع نويل ومنها عدة مواضع من ديوان ولتير وديوان رسين وديوان رسو .. وقرأت أيضاً وحدى مراسلات انكليزيى صنفها القونة شسترقيلد لتربية ولده وتعليمه ، وكثيراً من المقامات الفرنساوية. وبالجملة فقد اطلعت فى آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة . وقرأت فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب برلماكى وترجمته وفهمته فهماً جيداً .. وقرأت مع مسيو شواليه جزءين من كتاب يسمى روح الشرائع مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له منتسكيو وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجى كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضاً منتسكيو الشرق أى منتسكيو الإسلام . وقرأت أيضاً فى هذا المعنى كتاباً يسمى عقد التأنس والاجتماع الإنسانى مؤلفه يقال له روسو وهو عظيم فى معناه. وقرأت فى الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم . وقرأت عدة محال نفيسة فى معجم الفلسفة للخواجه ولتير وعدة محال فى كتب فلسفة قندلياق. وقرأت فى فن العسكرية .. وقرأت كثيراً فى كازيطات العلوم اليومية والشهرية وفى كازيطات السياسات اليومية التى تذكر كل يوم ما يصل خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة البوليتيقة " . الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٦٠ .

(٢٤) زكريا الرفاعى: فكرة الدولة عند الطهطاوى ، ص٣٤ -٣٩ . طه وادى: ديوان رفاعه الطهطاوى ، ص ٣٦ ، ٣٨ . أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر

الحديثة ، ص ٢٤ .

(٢٥) رفاعه رافع الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ٥ .

(٢٦) لويس عوض : المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ، الجزء الثانى ، الفكر السياسى والاجتماعى ، دار المعرفة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٦ ، ص ١٧٥ .

(٢٧) فى حديثه عن ما حصله من دراسة فى فرنسا استخدم الطهطاوى " ديوان " للدلالة على مجمل الانتاج الأدبى – المنظوم والمنثور – لكاتب من الكتاب ، واستخدم " مقامة " للدلالة على الروايات ، مما يعنى بقاء المقامة حتى زمنه المرجعية الثقافية لأى نص أدبى مكتوب يرتكز إلى القص . رضوى عاشور : الحداثة الممكنة .. الشدياق والساق على الساق ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٩ ، ص ٣٤ .

(٢٨) كتب فى هذا الصدد فى " مناهج الألباب " عما " دبره محمد على من أصول المنافع العمومية الجسيمة والوصول بها إلى الحصول على التقدمات العميمة فى زمن يسير ، مما لو أنجزه من الملوك جم غفير ، لعُد من العمل الكثير وحسن التدبير " ومن أهم منجزاته أنه " لم يكتف بتوسيع دائرة التعليم والتعلم فى بلاده ، بل أرسل إلى فرانسا عدة إرساليات لتعلم العلوم والصنائع واستخراج الفنون من مبادئها لتفى بمراده ، فتكفل استخراج المنافع من معادنها وباستنباط عيون المعارف من مواطنها .. ولو لم يكن للمرحوم محمد على من المحاسن إلا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها للمدد المديدة والسنين العديدة لكفاه ذلك ، فقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد وآنسها بوصال أبناء الممالك الأخرى والبلاد ، لنشر المنافع العمومية واكتساب السبق فى ميدان التقدمية " . رفاعه الطهطاوى : مناهج الألباب ، ص ١٨٨ ، ٢١٣ ، ٢٤٨ . يونان لبيب رزق : مرجع سابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢٩) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٨ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣١) لقد كتب " وأما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلماً تاماً عدة أمور واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص وكشفهم كثيراً من الأشياء وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها ، فإن هذه عندهم هى أوصاف العالم . وليس عندهم كل مدرس عالماً ولا كل مؤلف علامة ، بل لابد من كونه بتلك الأوصاف ، ولابد له من درجات معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الإسم إلا بعد استيفائها والارتقاء . ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس لأن القسوس إنما هم علماء فى الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضاً . وأما من يطلق عليه اسم العالم فهو من له معرفة فى العلوم العقلية التى من جملتها علم الأحكام والسياسات .. فإذا قيل فى فرانسا هذا الإنسان عالم لا يفهم منه أنه عالم فى دينه بل إنه يعرف علماً من العلوم الأخرى " . رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٣٢ .

(٣٢) كتب عن " مجامع العلماء والمدارس المشهورة وخزائن الكتب ونحو ذلك لتعرف به مزية

الإفرنج على غيرهم . فمن خزائن الكتب الخزانة السلطانية وفيها سائر ما أمكن الفرنساوية تحصيله من الكتب فى أى علم كان بأى لغة كانت مطبوعة أو منسوخة ، وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة ألف مجلد . وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التى يندر وجودها بمصر أو بغيرها وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبداً " . وإذا كانت المصاحف المحفوظة عندهم " غير مهانة بل هى مصونة غاية الصون " فإن " الضرر فى كونهم يسلمونها لمن يريد أن يقرأ القرءآن منهم أو يترجمه أو نحو ذلك . وتوجد المصاحف للبيع فى مدينة باريس ، وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائر الآيات التى اختارها للترجمة ثم ترجمها وضم إليها قواعد الإسلام وبعض شعبه وقال فى كتابه أنه يظهر له أن دين الإسلام هو أصفى الأديان وأنه مشتمل على ما لا يوجد فى غيره من الأديان " . رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٣٤ - ١٣٦ .

(٣٣) عند دون أن الطهطاوى رجع إلى القرآن والحديث واستخدم مصطلحات الضلالة والبدعة خوفاً من اتهام المشايخ له بعد عودته بأنه وصف الكفار فى رحلته. Heyworth Dunne;op.cit, p.402.

(٣٤) حسين فوزى النجار : رفاعه الطهطاوى رائد فكر وإمام نهضة ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٨٩ .

(٣٥) الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص٤ ، ٩ . زكريا الرفاعى: فكرة الدولة عند الطهطاوى ، ص ٥٠ .

(٣٦) حسين فوزى النجار : رفاعه الطهطاوى رائد فكر وإمام نهضة ، ص ٨٠ .

(٣٧) عند وصولها تعرضت البعثة لهجوم الصحافة الراديكالية بسبب التدخل المصرى لإخماد ثورة اليونان التى طالبت بالاستقلال عن الدولة العثمانية ونالت عطف وتأييد بعض الحكومات والشعوب الأوربية . على أنه ، وبإيحاء من جومار ، دعت بعض الصحف للفصل بين التدخل العسكرى الذى أُجبر عليه باشا مصر من قِبل الباب العالى وبين رغبة الباشا الشخصية واختياره فرنسا ليرسل إليها بعثة لتحصيل العلم. Alan Silvera; The first Egyptian student mission to France under Muhammad Ali, Middle Eastern Studies, vol 16, No 2, London, 1980, p. 9.

(٣٨) حسين فوزى النجار : رفاعه الطهطاوى رائد فكر وإمام نهضة ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٣٩) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ١٥٢ .

(٤٠) يبدو أن جومار أدرك أن بوسع الطهطاوى أن يلعب دوراً هاماً فى نقل العلوم والثقافة الفرنسية من خلال البراعة التى أظهرها فى الترجمة فوضع له " برنامج عمل " لترجمة العديد من الكتب ، الأمر الذى ذكره الطهطاوى فى ترجمته لكتاب " المعادن النافعة " . ولم تنقطع الصلة بين الطهطاوى وجومار حتى بعد عودة الأول إلى مصر ، الذى عبر عن ذلك فى مقدمة ترجمته لكتاب " التعريبات الشافية " قائلاً " واعتمدنا فيه على رسالة ألفها الخواجة جومار وهو السبب فى ممارستنا لهذا العلم ومن وقت مفارقتنا له إلى الآن يفيدنا بالمراسلات فوائد جديدة " . الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ٢٠ ، ٢١ . التعريبات الشافية لمريد الجغرافية ، بولاق ، ١٨٣٨ ، ص ٥ . زكريا الرفاعى : مرجع

سابق ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٤١) ادوارد سعيد : الاستشراق ، المفاهيم الغربية للشرق ، ترجمة : محمد عنانى ، دار رؤية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ . محمود المقداد : تاريخ الدراسات العربية فى فرنسا ، عالم المعرفة ، عدد ١٦٧ ، الكويت ، ١٩٩٢، ص ٢٣٣- ٢٤٠ . بابر يُهنسن : الشروط الفكرية والسياسية لفرع معرفى ، ص ٤٥ . بحث فى كتاب : تأملات فى الشرق.. تقاليد الاستشراق الفرنسى وحاضره ، ترجمة : عدنان حسن ، محمد صبح ، قدمس ، بيروت ، ٢٠٠٦ . زكارى لوكمان : تاريخ الاستشراق وسياساته .. الصراع على تفسير الشق الأوسط ، ترجمة : شريف يونس ، دار الشروق ، القاهرة ،٢٠٠٧ ، ص١٢٩ .

(٤٢) محمود المقداد : مرجع سابق ، ص ١٥٤ ، ١٦٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ . عبد الرؤوف خريوش : دور المستشرقين الفرنسيين فى نقل الثقافة العربية إلى الغرب ، بحث على " جوجل " .

(٤٣) ادوارد سعيد : مرجع سابق ، ص ٢١٥ - ٢١٩ . محمود المقداد : مرجع سابق ، ص ١٦٨.

(٤٤) ادوارد سعيد : مرجع سابق ، ص ٢١٣ - ٢٢٠ . بابر يُهنسن : مرجع سابق ، ص ٤٥ .

(٤٥) عند سعيد " إذا استخدمنا حملة نابليون باعتبارها أولى الخبرات التى مكنت الاستشراق الحديث من الظهور ، فلنا أن نعتبر أن أبطالها الذين شقوا الطريق - مثل دى ساسى - هم الذين تولوا بناء هذا المجال وإنشاء تقاليد جديدة . وكان ما فعله ساسى ورينان ولين يتمثل فى إقامة الاستشراق على أساس علمى وعقلانى " . ادوارد سعيد : الاستشراق ، ص ٢١٠ ، ٢١٢ .

(٤٦) اعتبر البعض أنه أول مستشرق أوربى فى العصر الحديث يمثل الاستشراق كمؤسسة سياسية تعمل لخدمة الاستعمار الغربى فى العالم الإسلامى ، حيث كان حلقة الوصل بين الاستشراق والسياسة الفرنسية بالبلاد الإسلامية . وعند هؤلاء أن مجرد الاهتمام باللغة العربية لا يجعل أى إنسان منصفاً ، فجميع المستشرقين يشاركون فى هذا الاهتمام ، بل إن نشأة الاستشراق فى الغرب ارتبط بالتنصير واتخذ من دراسة اللغة العربية وسيلة له . مؤلف مجهول : المستشرق دى ساسى ، بحث على اللإنترنت.

(٤٧) زكارى لوكمان : مرجع سابق ، ص ١٢٩ .

(٤٨) هنرى لورانس : الاستشراق الفرنسى ، ص ٦٢ ، ٨٢ . فى كتاب : تأملات فى الشرق .

(٤٩) محمود المقداد : تاريخ الدراسات العربية فى فرنسا ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٥٠) ادوارد سعيد : مرجع سابق ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٥١) يرى لوكمان أنه بامتداد السيطرة الأوربية على الشرق العربى فى القرن التاسع عشر ، كانت طرق تحليل وتخيل وتصوير الشرق عند الباحثين والكتاب والفنانين الأوربيين متشابكة غالباً بطرق معقدة مع واقع السلطة الأوربية المتنامية على تلك الشعوب والأراضى . ولكن هذا لا يعنى أن كل مستشرق كان عميلاً واعياً للاستعمار ، أو أن كل إنتاج للاستشراق قد استُعمل فى تبرير الاستعمار أو إضفاء الشرعية عليه . فلم يكن هناك موقف أوربى موحد بالكامل تجاه الاسلام أو المسلمين أو الشرق أو الاستعمار .

ولكن فى نفس الوقت أفاد التوسع الدرامى للقوى الأوربية فى امتدادات واسعة من العالم الإسلامى فى دعم مقدمات منطقية أو افتراضات وطرق بعينها فى فهم وتعريف الإسلام والشرق (بالإضافة إلى الغرب) على حساب غيرها . وهذا بدوره رجح تعريف الباحثين لما كانوا يدرسونه والأسئلة التى يطرحونها ، بطرق معينة على حساب غيرها ، مما أدى لإنتاج تفسيرات أفادت بدورها فى دعم افتراضات مسلم بها عن مصادر وطبيعة التفوق الغربى وتخلف الإسلام وتدهوره . زكارى لوكمان : مرجع سابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٥٢) محمود المقداد : مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

(٥٣) عندما تحدث الطهطاوى فى الفصل السادس عن " الامتحانات التى صنعت معى فى مدينة باريس " أورد أن المسيو جومار ، فى امتحان العام الثانى، وفى ١٥ مارس ١٨٢٨ " بعث لى كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور تأليف مسيو دساسى " ومعه " مكتوب " كان مما جاء فيه " قد صرت مستحقاً لهدية النحو الفرنساوى بالتقدم الذى حصلته فى هذه اللغة وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير " . رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٦٤ .

(٥٤) ظهر ساسى على مسرح الدراسات العربية فى أوربا وهى تعانى من التشتت والضعف وتخضع للأمزجة والأهواء وتتعرض للانقطاع فترات من الزمن ، لأنها لم تكن تملك مقومات الاستمرارية والثبات . لكن ساسى عمل على بث الدراسات العربية وترسيخ قدمها فى فرنسا وأوربا فانتقلت بذلك من العيش فى العراء الذى كان يعرضها لكل أنواع التقلبات فى الأجواء العامة إلى حصن حصين يحميها من هذه التقلبات وينظمها ويضمن لها العيش المطمئن والازدهار . محمود المقداد : مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .

(٥٥) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٥٦) مما ورد فى مقدمة دى ساسى التى ذكرها الطهطاوى " أما بعد لما فضَّل الله جنس الناس على سائر المبتدعات بفوائد الأفهام واختص بنى آدم من بين أصناف الحيوانات بكرامة الكلام ، بعث فى كل أمة من الأمم من يكون فى تمهيد قواعد البلاغة واستنباط أحكام شريعتها معروفاً مشهوراً ويصير لسالك طريقة الفصاحة إماماً ودستورا . فممن اشتهر بذلك بين الأنام ، وصار المشار إليه فى هذا الباب عند أهل الإسلام ، مؤلف المقامات المشهور بالحريرى وهو الشيخ الإمام أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان البصرى الذى ازدرى من كان قبله من الأدباء والفصحاء وأجهد من جاء بعده من الظرفاء والبلغاء . فإنى لما رأيت أن كتابه المذكورلم يزل مذ ألفه إلى يومنا هذا لعلم الأدب كالعلم المشهور ، يحسبه الخاصة والعامة واسطة عقده وخلاصة نقده ، ويعتقدونه نور مصباحه وضياء صباحه ، بل لا يشك أحد منهم أنه أزهار بستانه وأثمار جناته وزلال مائه ونسيم هوائه ، أحببت أن أشرحه شرحاً متوسطاً بين الإيجاز والتطويل ، أكشف الغطاء عن مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل . وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير وذكرهم الحاج خليفة فى كتابه .. وما وصل يدى إليه من مؤلفاتهم شروح أربعة منها غريب الإيضاح فى غريب المقامات الحريرية للإمام برهان

الدين أبى الفتح ناصر ابن عبد السيد المطرزى الخوارزمى .. ومنها كتاب شرح ما غمض من الألفاظ اللغوية من المقامات الحريرية تأليف الشيخ محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى البغدادى .. ومنها شرح المقامات للأستاذ اللغوى النحوى أبى العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القسى الشربشى .. ومنها شرح آخر تأليف الشيخ شمس الدين أبى بكر محمد بن أبى بكر الرازى .. هذا ما كان لى من شروح المقامات . وقد اجتمع عندى أيضاً نسخ ست من كتاب المقامات بلا شرح غير أن أكثرها يوجد به من التعليقات والحواشى ما ينتفع به القارئ . وقد اخترت من تلك الشروح والحواشى كل ما يحتاج إليه طالب العلم فى تحصيل المقصود ويستعين به الراغب فى الأدب على إدراك المطلوب ، ثم أضفت إلى ذلك شيأ كثيراً نقلته من كتب أئمة النحو واللغة ومن مجمع الأمثال للعلامة الميدانى وكتاب وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان لابن خلكان ثم من ديوان البحترى ومن ديوان المتنبى وشرح المعلقات للزوزنى وغير هذا من كتب الأدب . كل ذلك ليتيسر على من أعجبه الغوص فى بحار اللغات العربية أن يظفر من دررها بكل يتيمة عقيلة ، وليسهل على المولع بغرائب العلوم الأدبية المشرقية أن يصل من جواهر معادنها إلى كل فلذة ثمينة جزيلة . وإنما المرجو ممن نظر فى هذا الشرح المختار أن لا يؤاخذنى على ما ظهر عليه من العثرات ، بل أن يستر بذيل كرمه ما استبان له من العورات . والله أسأله أن يجعل هذا الكتاب لمن تصفحه من أهل الشرق والغرب نافعاً مفيداً ، ولجميع من أسرع إلى مورده من أبناء جنسنا ومن غير جنسنا هنيئاً مريئاً حميداً " . رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ٦٢ – ٦٥ .

(٥٧) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ٦٦ .

(٥٨) نشر ساسى هذا الكتاب عام ١٨١٠ وأعاد نشره عام ١٨٣١ . محمود المقداد : مرجع سابق ، ص ١٥١ .

(٥٩) زكريا الرفاعى : فكرة الدولة عند رفاعه الطهطاوى ، ص ٦٧ .

(٦٠) كتب الطهطاوى فى تقديمه للكتاب أن على مبارك اتجه للعمل على تقدم المدارس من خلال " تكميل وسائل التعليم وتأليف بعض رسائل فى العلوم والفنون متنوعة لتكون بعموم نفعها فى عموم المدارس متبعة. وقد أشرك معه فى مواد التصنيف عدة أفراد ممن لهم فى المعارف المخصوصة خصوصية الانفراد فكان حظى من هذه القسمة العدلية تأليف رسالة فى النحو سهلة المأخذ لدراسة المدارس الخصوصية والأولية فجمعت هذه الرسالة فجاءت .. من محاسن الدولة الاسماعيلية وأحاسن المنافع الوطنية الملية ، تفى بالمرام لجزالة اللفظ وحسن الانسجام لاسيما وأنها مصنوعة على أسلوب جديد يقرب البعيد للمريد المستفيد " . أما أحمد قطه العدوى مصحح الكتاب فاعتبره " الكتاب الأول والآخر فى فن العربية " . رفاعه الطهطاوى : التحفة المكتبية فى تقريب اللغة العربية ، القاهرة ، ١٣٨٦ ، ص ٣ ، ١٨١ . وقد أكد البعض على تأثر الطهطاوى بما كتبه ساسى واتباعه منهجه فى التأليف وأنه عندما قارن بين منهج المستشرقين والأزهريين فى ميدانى النحو والأدب انحاز إلى طريقة المستشرقين . ففى ميدان النحو توقف عند

مصطلح (غرماتيقى) وعرفه بأنه قواعد اللسان الفرنساوى وفن تركيب كلماته وقراءتها، أى فن النحو . لكنه قارن بين مصطلح غرماتيقى فى الفرنسية ومصطلح النحو فى العربية ورأى أن مصطلح (نحو) العربى لا يقابل مصطلح (غرماتيقى) واقترح أن يكون مصطلح (علوم العربية) ترجمة (غرماتيقى) لأنه يشمل علوماً أخرى غير النحو مثل الصرف والعروض والقوافى والبيان والخط والإنشاء والمعانى التى تسمى عند العرب (علوم العربية) واقترح تسميتها (مباحث علم العربية) . كما أثار قضية الإعراب (حركات أواخر الكلمات) وعدها حائلاً بين القارئ وبين فهم النص لانشغاله بالنظر فى مدى تأثير حركات أواخر الكلمات على المعانى . وهذا يعنى أن وجهة نظره فى الإعراب اتفقت مع وجهات نظر بعض المستشرقين. وفى مقارنته بين ما ألفه شيوخه الأزهريون من حواش وشروح فى النحو وما أورده ساسى فى (التحفة السنية) أثنى على طريقة ساسى فى التأليف ، كما أشار إلى قيامه بجمع وترتيب بعض المصطلحات النحوية واللغوية الغامضة فى كتاب (المختار من كتب أئمة التفسير والعربية فى كشف الغطاء عن غوامض الاصطلاحات النحوية واللغوية) . وعندما ألف " التحفة المكتبية " فى النحو لطلبة المدارس الأولية لم يجد أمامه نموذجاً يحتذيه سوى (التحفة السنية) لدى ساسى حيث استفاد من فكرة الجداول الإيضاحية التي اعتمد عليها ، كما أفاد من جهود الأوروبيين فى تعليمهم النحو العربى لطلابهم . وإلى جانب اهتمامه بالنحو كانت له عناية بالتعرف على جهود المستشرقين فى ميادين تحقيق وشرح التراث العربى القديم وخصوصاً جهود دى ساسى . مؤلف مجهول : مفهوم العلم والعالم بين المستشرقين والأزهريين كما يراه رفاعه الطهطاوى فى النحو والأدب ، بحث على الإنترنت . محمود المقداد : مرجع سابق ، ص ١٥١ .

(٦١) رفاعه الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٥٨ .

(٦٢) رضوى عاشور : الحداثة الممكنة ، ص ٢٠ ، ٢٤ . أحمد فارس الشدياق : الساق على الساق ، نسخة ديجيتال على الانترنت ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٥٢٣ . وكتب الطهطاوى عن البعثة المصرية فى باريس " ونحن نُعد هناك من الموسرين ، بل من الأغنياء لتجملنا بالملبس الغريب عندهم ، ولنسبتنا لولى النعم " . رفاعه الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٤٨ .

(٦٣) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٦٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، ص ٥٠٦ .

(٦٥) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٥٣ .

(٦٦) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٦٨) زكريا الرفاعى: فكرة الدولة عند رفاعه الطهطاوى ، ص ٤٩ .

(٦٩) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٧١) هنرى لورانس : الاستشراق الفرنسى : مسار تاريخى ، ص ٧٩ .
(٧٢) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ١٥٦ .
(٧٣) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .
(٧٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، ص ٥١٣ .
(٧٥) عبد المنعم الجميعى : مدرسة الألسن أيام رفاعه الطهطاوى ، ص ٦٠٧ . سهام الفريح : رفاعه رافع الطهطاوى مع الآخر الحضارى ، ص ٥٢٩ ، ٥٣٠ . فى كتاب : رفاعه الطهطاوى رائد التنوير . ولقد كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ثم الإيطالية والانجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهى أشبه ما تكون بكلية للآداب والحقوق فلا غرو أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر . عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، ص ٥١٥ .
(٧٦) إيمان السعيد جلال : المصطلح عند رفاعه الطهطاوى ، ص ١٨ .
(٧٧) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ١٥٦ .
(٧٨) حسين فوزى النجار : مرجع سابق ، ص ١٦٥ . سهام الفريح : مرجع سابق ، ص ٥٣٠ .
(٧٩) ففى الفترة منذ عودته عام ١٨٣١ إلى عام ١٨٣٨ كانت عناوين كتبه : جغرافية صغيرة ١٨٣٠ (مترجم) . المعادن النافعة ١٨٣٣ (مترجم) . قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر (مترجم) ١٨٣٣ . التعريبات الشافية لمريد الجغرافية ١٨٣٨ (مترجم). تخليص الابريز ١٨٣٤ (مؤلف) . كتاب فى الهندسة (مترجم) ١٨٣٤ . الكنز المختار فى كشف الأرض والبحر (مترجم ١٨٣٦). الجزء الأول والثالث من الجغرافية العمومية (مترجم) والأرجح أنه طبع فى عام ١٨٣٤ . وفى الفترة بين عام ١٨٦٨ وحتى وفاته عام ١٨٧٣ كان لمؤلفات الطهطاوى طابعها الخاص حيث اتجه للتأليف والإبداع وظهرت أعماله الرئيسية " أنوار توفيق الجليل فى تاريخ مصر وتوثيق بنى اسماعيل " عام ١٨٦٨ و" مناهج الألباب المصرية " ١٨٦٩ ، ثم " القول السديد فى الاجتهاد والتقليد " ١٨٧٠ و" المرشد الأمين للبنات والبنين " ١٨٧٣ وأيضاً الجزء الثانى لأنوار توفيق الجليل وهو " نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز " ، ١٨٧٣ ولاشك أن هذه الفترة كانت تتواكب مع سنوات النهضة والتحول خلال حكم الخديوى اسماعيل . ويمكن القول بأن كتابات الطهطاوى الأولى احتوت على أفكار عامة متناثرة هنا وهناك ثم تبلورت فى رؤية أكثر شمولاً فى أعماله الأخيرة بعد أن صقلته التجربة وصار أكثر إدراكاً لمتطلبات المجتمع المصرى . زكريا الرفاعى : فكرة الدولة عند رفاعه الطهطاوى ، ص ٦١ ، ٦٢ .
(٨٠) رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ، ص ٥٣ ، ٥٤ .
(٨١) رفاعه الطهطاوى : تخليص الإبريز ، ص ١٨٤ . مناهج الألباب ، ص ٢٩٤ . يونان لبيب رزق : رفاعه الطهطاوى وقضايا عصره ، ص ٤٢ ، ٤٣ .